شرح الأسباب العشرة

الموجبة لمحبة الله

كما عدها الإمام ابن القيم رحمه الله

إعداد

عبد العزيز مصطفى

ح دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
كامل، عبد العزيز مصطفى
شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله كما عدها الإمام ابن القيم.
عبد العزيز مصطفى كامل - الرياض، ١٤٢٩هـ
١٦٧ص ؛ ١٧ x ٢٤سم
ردمك: ٣ - ١٨ - ٨٠٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الوعظ والإرشاد ٢ - العبادات (الإسلام) أ - العنوان
ديوي: ٢١٣ ٤٥٤٥ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ٤٥٤٥ / ١٤٢٩
ردمك: ٣ - ١٨ - ٨٠٠٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الرابعة عشرة

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار طيبة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي
ش. السويدي العام - غرب النفق - ص. ب ٧٦١٢
الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٢٧٢٧ (٦ خطوط) فاكس ٤٢٥٨٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد؛ فلعلك - أخي القارئ الكريم - سبق وأن غمرتك سعادة واحتواك سرور، كذاك الذي وجده أصحاب رسول الله ﷺ عندما سأله رجل سؤالاً، فأجابه إجابة أثلجت صدورهم وأشرقت لها نفوسهم...

أتدري ما السؤال وما الإجابة...؟

هاك فاسمع..!

روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: بينما أنا ورسول الله ﷺ خارجين من المسجد، فلقينا رجلاً عند سُدة المسجد، فقال: يا رسول الله: متىٰ الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: (**ما أعددت لها؟**) قال فكأن الرجل استكان. ثم قال: يا رسول الله: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله. قال: (**فأنت مع من أحببت**)(١) وفي رواية قال أنس «فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ»: (**فإنك مع من أحببت**)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١) فتح الباري (١٠/ ٥٧٣). وأخرجه مسلم (٢٦٣٩) (٤/ ٢٠٣٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٩) (٤/ ٢٠٣٢).

فلماذا فرح أصحاب رسول الله ﷺ بهذا الحديث كل هذا الفرح، حتىٰ أنهم لم يفرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم به؟! أتعلم - أخي القارئ - لماذا؟

إنهم فرحوا لأنهم أُعلموا بأن الصدق في محبة الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، يدرك به المرء منزلة قلّما توصل إليها الأعمال...

فعمل العبد كثيراً ما تلحقه الآفات والفترات والنقائص. أما إذا استجمع الإنسان في قلبه محبة صادقة خالصة دائمة لله ورسوله، فإن ذلك يعوض نقصان عمله، ويبلغه المنازل العالية التي ربما قصرت عن بلوغها همته وتقاصرت عن استشرافها قامته.

فالمحبة يزكو بها العمل القليل، ويبارك بها في الجهد اليسير، فلا المجتهد السابق مستغن عنها، ولا القاصد أو المقصر مفلح بغيرها.

ولهذا قال راوي الحديث: أنس بن مالك: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فارجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم»(١).

إن المحبة - علىٰ هذا - أمر عظيم، وشيء جليل ... إنها شأن آخر...

إنها - كما قال ابن القيم رحمه الله -: «المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون وإليها شخص العاملون، وإلىٰ علمها شمّر السابقون، وعليها تفانىٰ المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون وهي الحياة التي من حُرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها، فعيشه كله هموم وآلام... تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٣٩) (٤/٢٠٣٣).

محبوبهم أوفر نصيب.

وقد قضىٰ الله – يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة: أن المرء مع من أحب. فيا لها من نعمة علىٰ المحبين سابغة، تالله لقد سبق القومُ السعاةَ وهم علىٰ ظهور الفرش نائمون، وقد تقدموا الركب بمراحل، وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً، وتجيء في الأول»(١)

ولكن هذا لا يعني انفصال المحبة عن العمل، أو استغناء المحب عن طاعة من يحب... لا، فكما أن كل عمل يؤدىٰ بلا محبة لا روح فيه فكذلك كل محبة تدعىٰ بغير عمل لا صدق فيها، بل كل إيمان يُزعم بدون محبة ولا عمل فلا حقيقة له. يقول ابن تيمية – رحمه الله –: «محبة الله، بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله، وأجل قواعده، بل أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين، فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة؛ إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة. فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى؛ إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون صالحاً، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله؛ فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه»(٢).

ومحبة الله تعالىٰ في الإيمان ومقاماته،كواسطة العقد بين حباته «فما

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية. تعليق محمد حامد الفقي (٣/٦، ٧). مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة.

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم (١٠/٤٨، ٤٩) دار عالم الكتب بالرياض.

بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها كالشوق، والأنس، والرضى. ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها، كالتوبة والصبر والزهد وغيرها»(١). فلا وصول إلىٰ درجة المحبة من سلم الإيمان إلا بعد تخطي الدرجات قبلها، ولا صعود إلىٰ ما فوقها إلا بعد الوصول إليها .

وإذا أراد العبد منا أن يبرهن علىٰ صدق محبته، أو يحصِّل أصل تلك المحبة، أو أراد أن يترقىٰ في مدارجها فلا بد له من العمل.

وإذا أراد أن يرقىٰ من منزلة (المحب لله) إلىٰ منزلة (المحبوب من الله) فطريقه إلىٰ ذلك.. العمل.

وبين يديك - أخي القارئ - دراسة في شرح أسباب عشرة، عدَّها الإمام شمس الدين بن قيم الجوزية - رحمه الله - في كتابه العظيم (مدراج السالكين) وذكر أنها تستوجب محبة الله للعبد.

ولا أراني وإياك إلا في أشد الحاجة إلىٰ الوقوف عليها والتأمل فيها، حتىٰ نستجمع منها لأنفسنا زاداً أثناء السفر وبعد انتهاء السفر، إلىٰ دار المستقر.

ولا أظنك - قارئي الكريم - إلا حريصاً علىٰ بناء مستقبل لك هناك...!

نعم، مستقبلٌ هناك ... فالمستقبل علىٰ الحقيقة هناك، أما هنا فالمستقبل مجاز وألغاز.

فابدأ من الآن في البناء، شاباً كنت أوهرماً، رجلاً كنت أو امرأة... ابدأ في البناء، أو استأنف البناء لهذا المستقبل، واجتهد في إيداع الأرصدة

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٣٢٢ اختصار الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي وتحقيق: عبد الله الأنصاري. .

تنبيه: ألفاظ الكتاب للإمام عبدالرحمن بن الجوزي ولهذا عزونا إليه طيلة البحث.

هناك، فالليل والنهار خزانتان تُملآن هنا، وتفتحان هناك...

فاجهد في ملء تلك الخزائن ببراهين المحبة وعناوين الإخلاص ودلائل الطاعة. ولا تنس الاستعانة بالله علىٰ ذلك، وكن علىٰ ذكر دائم بقوله ﷺ: **(أتاني ربي عز وجل - يعني في المنام - فقال لي: يا محمد: قل: اللَّهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك)**[١].

* * *

---

(١) رواه ابن خزيمة في التوحيد (٢١٨ - ٢١٩)، والطبراني في الكبير (٢٠/٢١٦) ورواه أحمد (٥/٤٢٣)، والحاكم (١/٥٢١)، والترمذي (٣٢٣٣) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي. ح (٢٥٨٢) (٣/٩٨).

السبب الأول

قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

[قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه].

من الأسباب الجالبة لمحبة الله عز وجل قراءة القرآن بخشوع وتدبر وتفهم، ولا عجب أن يكون القرب من كتاب الله من أعظم القُرَب الموجبة لمحبة الله؛ فإذا كان الله تعالىٰ قد شاء بحكمته أن يكون إيماننا به من الإيمان بالغيب؛ فإنه سبحانه قد شاء أيضاً أن يكون خطابه لنا وحديثه إلينا من أمر الشهادة، فنرىٰ كلامه مسطوراً، ونسمعه مقروءاً، ويتكرر وقعه بلفظه ومعناه علىٰ القلوب والأفئدة.

لقد كان السلف يستشعرون هذا المعنىٰ وهم يقرءون القرآن، حتىٰ إنهم كانوا يتلقونه تلقي الغائب الغريب لرسالة جاءت علىٰ شوق من الحبيب؛ قال الحسن بن علي رضي الله عنه: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار»(١).

إنه لشيء عظيم باهر - لو تأملنا - أن يخص الإله الكبير المتعالي مالك الملك سبحانه هذا الإنسان الضعيف الصغير القليل بخطابه وكلامه، وأن يحبوه ويمنحه شرف التحدث إليه ومناجاته.

قال ابن الجوزي - رحمه الله - «ينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالىٰ بخلقه في إيصال معاني كلامه إلىٰ أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه»(٢).

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن للإمام محيي الدين النووي ص ٢٨. مكتبة المنار - الاردن.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٤٦.

إنه تشريف للبشر واي تشريف وكرامة لهذا المخلوق لاتعدلها كرامة؛ قال ابن الصلاح - رحمه الله -: «قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر، فقد ورد أن الملائكة لم يُعطوا ذلك، وأنها حريصة على استماعه من الإنس»(١).

وإنما تكمل هذه الكرامة بقراءة القرآن إذا كان بإخلاص، فإن الإخلاص - كما قال الإمام النووي (رحمه الله) - أول ما يجب على القارئ، فينبغي أن يستحضر في نفسه أنه يناجي الله تعالى(٢).

تأمل أخي المسلم: أن الله تعالى وتقدس أعطاك إذن مناجاته، واعلم أنه بذاك أعطاك سر محبته؛ فالقرآن دليل محبته.

ولأن القرآن هو الدال على الله وعلى محاب الله، فلا جرم أن كانت محبته هي طريق القلب والعقل لمعرفة الله وما يحبه الله، فمنه تُعرف صفات الله وأسماؤه، وما يليق به وما يتنزه عنه، وما أمر به وما نهى عنه من الشرائع المفصلة الموصلة إلى محبته ورضاه.

لهذا فإن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، استجلب محبة الله بتلاوة سورة واحدة وتدبرها ومحبتها؛ هي سورة الإخلاص التي فيها صفة الرحمن جل وعلا فظل يرددها في صلاته، فلما سئل عن ذلك قال: «لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها» فقال النبي ﷺ (أخبروه أن الله يحبه)(٣).

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (١/٢٩١) دار التراث بالقاهرة.

(٢) انظر التبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي ص ٣٨.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٧٥) فتح الباري (١٣/٣٦٠) وأخرجه مسلم (١/٥٥٧) (٨١٣).

فلا بد لمن احب القرآن ان يحب الله لان صفته فيه ويحب رسول الله ﷺ لانه هو المبلغ له. قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «من احب القرآن، فهو يحب الله ورسوله»(١).

ولاشك ان من اكبر الدلائل علىٰ محبة القرآن: السعي إلىٰ تفهمه وتدبره والتفكر في معانيه، كما ان من دلائل خفة تلك المحبة او عدمها: الإعراض عن تدبره وتامل معانيه. قال تعالىٰ ذاماً المنافقين علىٰ عدم تدبر القرآن: ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ [النساء: ٨٢].

إن تدبر القرآن يعالج امراض القلوب، فهو يسري فيها فيشفيها من امراضها وينظفها من أوضارها، ويجيب علىٰ الشبهات والنزغات التي يمررها علىٰ تلك القلوب شياطين الإنس والجن.

اما المنافقون فلانهم يُعرضون عن تدبره والتماس الهداية منه فإن قلوبهم مريضة بامراض الشهوات والشبهات، كما قال سبحانه: ﴿ **في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ [البقرة: ١٠] وفي قراءة: ﴿ **بما كانوا يكذِّبون** ﴾(٢).

فالله تعالىٰ عندما دعاهم ودعا الناس جميعاً إلىٰ تدبر القرآن، إنما دعاهم سبحانه إلىٰ علاج قلوبهم من تلك الآفات المهلكة.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨٦٥٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/١٦٥) رجاله ثقات.

(٢) القراءة بالتخفيف وفتح الياء قرا بها الكوفيون (حمزة وعاصم والكسائي) وقرا الباقون بضم الياء والتشديد.

انظر كتاب التبصرة في القراءات السبع للإمام مكي بن ابي طالب ص ٤١٨. الدار السلفية بالهند.

﴿أفلا يتدبرون القرآن...﴾ قال القرطبي: «عاب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر فيه وفي معانيه»(١).

وإنما جُعل عدم التدبر عيباً، لأن من لا يتدبر القرآن، كأنما لا يهتم بحال قلبه، ولا يأبه بسلامته ونظافته، ولا يعمل حساباً لعواقب ذلك في العاجل والآجل، بينما يحسب المتدبر لكتاب الله حساب كل هذا ويطالع في عواقب كل هذا، فذلك هو المقصود أصلاً من التدبر.

قال الرازي «التدبير والتدبر، عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها»(٢).

ثم إن تدبر القرآن هو الطريق إلىٰ إدراك معانيه وفهم مراميه التي هي أصل تكاليف الدين. ومعرفة تكاليف الدين واجبة وجوب العمل بها ولهذا كان تدبر القرآن واجباً من واجبات الدين. قال القرطبي: «دلت هذه الآية وقوله تعالىٰ: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها﴾ [سورة محمد:٢٤] علىٰ وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه»(٣).

إن المعرفة الواجبة لمعاني القرآن عن طريق تدبره والإطلاع علىٰ جهود من تدبروه وتفقهوا فيه فوضعوا له التفاسير المتنوعة إن تلك المعرفة تسهل التعريف به بعد التعرُّف عليه، وتعليمه بعد تعلُّمه، وتلك منزلة أخرىٰ سامية لمحبي القرآن ومتدبريه؛ أولئك الذين حازوا الخيرية في أمة الخيرية.

(١) الجامع لأحكام القرآن، المعروف بـ(تفسير القرطبي) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٥/ ٢٩٠) الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة.

(٢) التفسير الكبير، المعروف بـ(تفسير الرازي) لفخر الدين الرازي (١٠/ ١٥٦) دار الكتب العلمية ببروت.

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠).

فإذا كانت الأمة المحمدية هي خير الأمم كما قال سبحانه ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ [آل عمران: ١١٠] فإن خير تلك الأمة وخاصة الخاصة فيها هم أهل القرآن. وقد نص الرسول ﷺ على تلك الخيرية في حديث لفظه صريح وسنده صحيح رواه عنه ذو النورين عثمان بن عفان - رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**)(١).

فهم خيار في الخيار،وهم خاصة الخاصة كما قال ﷺ في حديث آخر: (**إن لله عز وجل أهلين من الناس**) قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: (**أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته**)(٢).

إن هذه الخيرية، وتلك الخصوصية لأهل القرآن، لمما يُغبطون عليه؛ ذلك لأن من آتاه الله القرآن ورزقه حبه؛ فإنه سيرقى معه إلى مرتبة عالية في العبادة عندما يتلوه ويقوم به. قال ﷺ : (**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**)(٣). وإنما يغبط على ذلك الذين يقيمون حروفه ويحفظون حدوده.

أما الذين يقيمون حروفه ولا يحفظون حدوده، فإن القرآن حجة عليهم لا لهم - نسأل الله العافية - فهؤلاء ليسوا عن العقاب بمنأىً إن لم يتوبوا، أما الوعاة الحافظون للقرآن حروفاً وحدوداً فهؤلاء المعنيون بالأثر:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٢٧) فتح الباري (٨/٦٩٢).

(٢) رواه ابن ماجة في سننه من حديث أنس بن مالك (٢١٥) (١/٧٨) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (١٧٨) ورواه أحمد في مسنده (٣/١٢٧، ١٢٨، ٢٤٢) والحاكم (١/٥٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٢٦) فتح الباري (٨/٦٩١)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٨١٥) (١/٥٥٨) واللفظ له.

(لا يعذب الله قلباً وعىٰ القرآن)(١).

ولا بد لاكتمال الوعي بالقرآن من تدبره، فبركة هذا الكتاب مودعة فيه كالكنوز، لا يستخرجها إلا المتدبرون. قال تعالىٰ: ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ [سورة ص: ٢٩].

قال الإمام البقاعي في تفسير هذه الآية «اي لينظروا في عواقب كل آية وماتؤدي إليه، وما توصل إليه من المعاني الباطنة، التي اشعر بها طول التامل في الظاهر، فمن رضي بالاقتصار علىٰ حفظ حروفه كان كمن له لقحة درور(٢) لا يحلبها، ومهرة نتوج (٣) لا يستولدها، وكان جديراً بان يضيع حدوده فيخسر خسرانا مبيناً»(٤) اما إذا اراد أن يفوز فوزاً عظيماً، فليكن ممن يتلونه حق تلاوته. قال تعالىٰ: ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، إنه غفور شكور** ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

فالتجارة التي لن تبور هي الثواب الذي لا بد من حصوله(٥).

---

(١) الاثر رواه الدارمي عن ابي امامة الباهلي موقوفاً. (٣٣١٩) (٢ / ٥٢٤).

(٢) اللقحة الدرور: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن (لسان العرب). (٥ / ٤٠٥٧) مادة الفتح.

(٣) المهرة النتوج: انثىٰ الفرس الكثيرة الولادة. لسان العرب (٦ / ٤٢٨٧) مادة (مهر).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (١٦ / ٣٣٧٥) دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

(٥) تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير للحافظ ابي الفداء إسماعيل بن كثير (٦ / ٥٣١) طبعة دار الشعب.

وهذا كله لا يكون إلا بالتدبر، قال ابن الجوزي – رحمه الله –:

«التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية فليرددها، فقد روىٰ أبو ذر – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قام ليلة بآية يرددها: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [سورة المائدة: ١١٨].

وقام تميم الداري – رضي الله عنه – بآية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون﴾ [سورة الجاثية: ٢١] وكذلك قام بها الربيع بن خثيم[١] رحمه الله – ليلة.

وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالىٰ: ﴿خلق السماوات والأرض﴾ [سورة النحل: ٣] فليعلم عظمته، ويتلمح قدرته في كل ما يراه وإذا تلا: ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ [سورة الواقعة: ٥٨]، فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء؛ كيف تنقسم إلىٰ لحم وعظم وعرق وعصب وأشكال مختلفة، ومن رأس ويد ورجل،ثم إلىٰ ما ظهر فيها من الصفات كالسمع والبصر والعقل وغير ذلك، فليتأمل هذه العجائب. وإذا تلا أحوال المكذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر»[٢].

فالوقوف مع الآية وإعادة النظر فيها والتأمل لمعانيها مما يستشعر به المرء حلاوة القرآن؛ قال بشر بن السُّرىٰ: «إنما الآية مثل التمرة، كلمَّا مضغتها

---

(١) الربيع بن خثيم: أحد أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه. كان ابن مسعود يقول له ما رأيتك قط إلا ذكرت المخبتين، ولو رآك رسول الله ﷺ لأحبك. توفىٰ سنة ٦٢هـ. (البداية والنهاية) للحافظ ابن كثير (٤ / ٢١٩).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٤٧.

استخرجت حلاوتها». فحُدِّث بذلك أبو سليمان فقال: «صدق إنما يُؤتىٰ أحدكم من أنه إذا ابتدأ السورة أراد آخرها»(١).

قال ابن رجب رحمه الله: «قال بعض العارفين لمريد: أتحفظ القرآن؟ قال: لا. فقال: واغوثاه بالله! مريد لا يحفظ القرآن، فبم يتنعم؟ فبم يترنم؟ فبم يناجي ربه عز وجل؟»(٢)

إن للقرآن صحبة، فمن أحسن صحبة القرآن أحسن القرآن صحبته، أما من هجر القرآن فإن القرآن يهجره، فلا يُرىٰ له شوق إلىٰ تلاوة كتاب الله كذلك الذي يجده كل حين الموصول بصحبة القرآن.

وصحبة القرآن تصحب العبد حتىٰ تقوده إلىٰ الجنة في درجاتها العالية.

قال رسول الله ﷺ (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها)(٣) فهكذا

---

(١) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (١/ ٤٧١) دار التراث بالقاهرة.

(٢) جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الحنبلي. تحقيق شعيب الأرناؤوط (٢/ ٣٤٣) مؤسسة الرسالة بيروت.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٦٤) (٢/ ١٥٣) والترمذي (٢٩١٥) (٨/ ١١٧) وقال حسن صحيح وأحمد (٢/ ١٩٢)، والحاكم (١/ ٥٥٢ - ٥٥٣) وقال الذهبي صحيح كلهم من حديث عبد الله بن عمرو وأخرج ابن ماجة نحوه من حديث أبي سعيد الخدري (٣٧٨٠) (٢/ ١٢٤٢). وسنده فيه عطية العوفي وهو ضعيف لكن تابعه أبو صالح عن أبي سعيد عند ابن أبي شيبه (١٠/ ٤٩٨/ ١٠١٠٤) مثل لفظ حديث عبد الله بن عمرو. والحديث صححه أحمد شاكر في تعليقه علىٰ المسند (١١/ ٥٥) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٣٠٠) وراجع الصحيحة (٢٢٤٠).

يرتفع القرآن بصاحبه إلىٰ المعالي، فيكون معه كالصاحب الصديق الرفيق الذي لا يرضىٰ دون رضىٰ صاحبه. وهذا المعنىٰ يوضحه بألفاظ جلية حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عنه بريدة رضي الله عنه، قال: (**إن القرآن يلقىٰ صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول: هل تعرفني، فيقول ما أعرفك، فيقول أنا صاحبك القرآن، الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر وراء تجارته، وإني لك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطي الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع علىٰ رأسه تاج الوقار، ويكسىٰ والداه حُليتين لا تقوم لهما الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما كان يقرأ، هذًا كان أو ترتيلاً**)(١).

وإذا كان هذا تكريم حامل القرآن في الآخرة، فإن هناك كرامة ينبغي أن تكون له في الدنيا؛ قال رسول الله ﷺ: (**إن من إجلال الله تعالىٰ إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**)(٢).

إن صحبة القرآن لمن أحسنها شرف وأي شرف، فصاحب القرآن وحامله هو حامل لواء الإسلام، كما قال الفضيل بن عياض(٣) ـ رحمه الله

---

(١) رواه ابن ماجة (٣٧٨١) (٢/١٢٤٢) وقال الألباني في صحيح ابن ماجة: يحتمل التحسين ح (٣٠٤٨) ورواه أحمد (٥/٣٤٨) والدارمي في سننه (٢/٤٥٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٤٣) (٥/١٧٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود. (٤٠٥٣) (٣/٩١٨).

(٣) الفضيل بن عياض: أحد العباد الزهاد، والعلماء الأولياء، ولد بخراسان ثم استقر بمكة،، بدأ شبابه قاطع طريق، ولكن الله تاب عليه بسبب آية سمعها بغير قصد ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾ فقال: بلىٰ. توفي سنة ١٨٧ هـ (البداية والنهاية ١٠/٢٠٦).

- «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلغو مع مَنْ يلغو ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلهو مع من يلهو، تعظيماً لله تعالىٰ»(١) .

فهذا يستحق شرف حمل هذه الراية التي هي أشرف الرايات. قال تعالىٰ: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، أفلا تعقلون﴾ [الأنبياء: ١٠] قال ابن عباس: فيه شرفكم(٢) وقال تعالىٰ: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ [سورة الزخرف: ٤٤] يعني: شرف لك ولهم إذا قاموا بحقه(٣).

وأخبر النبي ﷺ عن ارتفاع شأن أهل القرآن به فقال ﷺ: (إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع آخرين)(٤).

ولا بد لحامل راية الشرف تلك أن تكون له أحوال غير حال الناس. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون»(٥) فهذه ضريبة الشرف التي يحملها حامل القرآن.

علىٰ أن حامل القرآن عليه ألا يُعجب بنفسه أو يغتر أو يتكبر علىٰ الخلق بما أكرمه الله به، قال تعالىٰ ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين: ٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٧).

(٣) تفسير الجلالين للإمامين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ص ٥٩٩ دار الريان بالقاهرة.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٢٦٩) (١/ ٥٥٩).

(٥) صفة الصفوة. للإمام ابن الجوزي (١/ ١٧٢).

قال ابن الجوزي: «ينبغي أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن لا يلتفت إلىٰ نفسه بعين الرضىٰ والتزكية، فإن من رأىٰ نفسه بصورة التقصير، كان ذلك سبب قربه»(١).

ولا يمنع شعوره بالتقصير من استشعاره للنعمة وذكره لها فإن ذلك من شكرها. فصاحب القرآن في نعمة لا تدانيها نعمة إذا كان من أهل العمل به. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا معشر القراء، ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولاتكونوا عيالاً علىٰ الناس»(٢).

والله تعالىٰ يقول: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ [سورة يونس: ٥٨]. وأي رحمة أعظم من هذا القرآن: قال سبحانه: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ [سورة الإسراء: ٨٢] فمن أُوتي القرآن فقد أوتي نعمة ورحمة.

يقول الزركشي رحمه الله: «اعلم أنه ينبغي لمح موقع النعم علىٰ مَنْ علمه الله تعالىٰ القرآن العظيم أو بعضه، بكونه أعظم المعجزات، لبقائه ببقاء دعوة الإسلام، ولكونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين فالحجة بالقرآن العظيم قائمة في كل عصر وزمان، لأنه كلام رب العالمين وأشرف كتبه جل وعلا. فَلْيَر من عنده القرآن، أن الله أنعم عليه نعمة عظيمة، وليستحضر من أفعاله أن يكون القرآن حجة له لا عليه»(٣) كما ينبغي للمنعم عليهم بتنزيل القرآن - وهم آحاد الأمة قاطبة - أن يحسنوا الانتفاع بهذه النعمة، ويستجمعوا في أنفسهم ما يستوجب حياة القلوب بها، ولعلك ستسأل - أخي القارئ - عن أفضل الوسائل لكمال الانتفاع بالقرآن، فجوابك في

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٤٧.
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٢٨.
(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٤٤٩).

قاعدة جليلة جعلها ابن القيم علىٰ رأس الفوائد التي أوردها - رحمه الله - في كتابه (الفوائد)؛ قال: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه، منه إليه، فإنه خطاب منه لك علىٰ لسان رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿إن في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب، أو ألقىٰ السمع وهو شهيد﴾ [سورة ق: ٣٧] وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً علىٰ مؤثر مقتضٍ، ومحلٍ قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله علىٰ المراد. فقوله تعالىٰ: ﴿إن في ذلك لذكرىٰ﴾ إشارة إلىٰ ما تقدم من أول السورة إلىٰ ههنا، وهذا هو المؤثر؛ وقوله: ﴿لمن كان له قلب﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله. كما قال تعالىٰ: ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حياً﴾ [سورة يس: ٦٩، ٧٠]، أي: حي القلب. وقوله تعالىٰ ﴿أو ألقىٰ السمع﴾ اي وجه سمعه، وأصغىٰ حاسة سمعه إلىٰ ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله تعالىٰ﴿وهو شهيد﴾ أي: شاهد القلب، حاضر غير غائب. قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلىٰ المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيابه عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر - وهو القرآن - والمحل القابل - وهو القلب الحي - ووجد الشرط - وهو الإصغاء - وانتفىٰ المانع - وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنىٰ الخطاب وانصرافه عنه إلىٰ شيء آخر - حصل الأثر، وهو الانتفاع والتذكر»(١).

وليستعد المرء بعد ذلك للعمل والامتثال بعد أن أحسن التعلم

---

(١) الفوائد، للإمام ابن قيم الجوزية ص٣.

والاستقبال، فإن العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه، وإلا ارتحل. قال في زاد المعاد: «قال بعض السلف: نزل القرآن ليُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً، ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه، ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله، وإن أقام حروفه إقامة السهم»(١).

فإلىٰ محبة الله، بالإقبال علىٰ كتاب الله، فهما وعلماً، امتثالاً وعملاً، حفظاً وحملاً. وإذا عزمت - أخي - علىٰ هذا الإقبال علىٰ محبة الله؛ بإقبالك علىٰ كتاب الله، فاصطحب معك آداب القرآن... وهاك آداب تلاوة القرآن:

الآداب المطلوبة عند تلاوة القرآن

ذكر الإمام النووي رحمه الله جُملاً من تلك الآداب والأحكام في كتابه التبيان، نلخص أهمها هنا، فيما يلي:

١- الإخلاص في القراءة واستحضار مناجاة الله تعالىٰ.

٢- أن ينظف فاه بالسواك أو ما يقوم مقامه.

٣- أن يقرأ وهو علىٰ طهارة، ويجوز أن يقرأ وهو محدث الحدث الأصغر - من حفظه من غير مس المصحف - ويجوز ذلك للمستحاضة في الزمن المحكوم بأنها علىٰ طهر.

٤- يحرم علىٰ الجنب والحائض قراءة القرآن كله أو بعضه إلا إذا كان هذا البعض من الأذكار الموظفة للصباح أو المساء أو الأذكار المطلقة المشتملة علىٰ بعض الآيات ولكن يجوز لهما إجراء القرآن علىٰ القلب من

(١) زاد المعاد في هَدْي خير العباد للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط (١/ ٣٣٨) مؤسسة الرسالة، بيروت.

دون تلفظ، ويجوز لهما أيضاً النظر في المصحف دون مسه مباشرة[١].

٥- إذا أراد الجنب أو الحائض التطهر فلم يجد ماءً تيمم، وتباح له القرآءة والصلاة وغيرها مالم يحدث أو يجد الماء.

٦- يستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف،ويستحب لذلك المسجد، لأنه في الغالب يجمع بين النظافة وشرف البقعة، إضافة إلىٰ أن الجلوس فيه يمكن أن يكون اعتكافاً بالنية، وينبغي كذلك ألا يقرأ القرآن إلا في مكان طيب طاهر.

٧- يستحب للقارئ أن يستقبل القبلة في قراءته، ويجلس متخشعاً بسكينة ووقار، مطرقاً رأسه، وإن قرأ قائماً أو مضطجعاً، أو غير ذلك من الأحوال، جاز وله أجر، ولكن دون الأول.

٨- إذا أراد الشروع في القراءة استُحب له أن يستعيذ فيقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» هكذا قال الجمهور من العلماء وينبغي أن يحافظ علىٰ قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة سوىٰ (براءة).

٩- إذا شرع في القراءة، فليستجمع همته للخشوع والتدبر.

١٠- ينبغي له إذا قرأ القرآن أن يستشعر خشية الله والخوف منه، لقول النبي ﷺ: (اقرأو القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا)[٢] وطريق

---

(١) هذه المسألة فيها خلاف وقول النووي فيها قال به كثير من أهل العلم قال الترمذي عن عدم جواز القراءة للجنب والحائض: «وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين ومن بعدهم، مثل: سفيان الثوري وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق. قالوا: لا تقرأ الحائض ولا الجنب من القرآن شيئاً إلا طرف الآية والحرف ونحو ذلك. ورخصوا للجنب والحائض في التسبيح والتهليل» (سنن الترمذي ١/١٥٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٧) (١/٤٢٤) وضعفه الالباني في ضعيف ابن ماجة (٢٨١) ص٩٩ ويغني عنه حديث جابر مرفوعاً (إن من أحسن الناس صوتاً -

ذلك بان يتامل ما في القرآن من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتامل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره الحزن والبكاء، فليبك علىٰ قسوة قلبه، فإنها من أعظم المصائب.

١١- وينبغي أن يقرأ القرآن ترتيلاً، وقد اتفق العلماء علىٰ استحباب الترتيل، لقوله تعالىٰ: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ [سورة المزمل: ٤] ولأن الترتيل أقرب للتوقير، وأشد تأثيراً في القلب من القراءة السريعة.

١٢- ويستحب إذا مرَّ بآية رحمة أن يسأل الله تعالىٰ من فضله، وإذا مرَّ بآية عذاب أن يستعيذ بالله من الشر ومن العذاب، وإذا مرَّ بآية تنزيه لله تعالىٰ نزهه فقال: سبحانه وتعالىٰ أو جلت عظمته ونحو ذلك.

١٣- ويجب أن يعتني باحترام القرآن وإجلاله عن الالتهاء عنه أثناء التلاوة بضحك أو لغط أو جدال أو عبث، لقوله تعالىٰ: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٤].

١٤- لا تجوز قراءة القرآن بغيرالعربية، سواء أحسن العربية أو لم يحسنها وسواء كانت القراءة في الصلاة أو في غيرها.

١٥- لا تجوز القراءة إلا بإحدىٰ القراءات السبع المتواترة، وتحرم القراءة بالقراءات الشاذة، وإذا قرأ القارئ بإحدىٰ القراءات فعليه أن يكمل قراءته بها ما دام الكلام مرتبطاً، ولا يتنقل بين القراءات في المجلس الواحد.

١٦- المختار عند العلماء، أن يقرأ علىٰ ترتيب المصحف، سواء في الصلاة أو في غيرها، لأن ترتيبه هكذا، جُعل لحكمة.

١٧- قراءة القرآن من المصاحف أفضل من القراءة عن ظهر قلب غيباً

= بالقرآن، الذي إذا سمعتموه يقرأحسبتموه يخشىٰ الله). أخرجه ابن ماجه (١٣٣٩) (١/٤٢٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٠١) (١/٢٢٥٤).

في غير الصلاة لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة فينبغي جمع القراءة والنظر معاً إلا إذا كان القارئ يخشع أكثر في القراءة من حفظه.

١٨- يستحب عقد الحلقات للقراءة وتدارس القرآن، لحديث رسول الله ﷺ: (**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**)[1].

١٩- يستحب رفع الصوت بالقراءة، إذا لم يخف الرياء أو التشويش على الغير، لأن قراءة الجهر توقظ القلب وتجمع الهمة، وتصرف السمع إلى التفكر في القراءة، وفي الحديث: (**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به**)[2].

٢٠- ويستحب تحسين الصوت بالقراءة لحديث رسول الله ﷺ: (**زينوا القرآن بأصواتكم**)[3].

٢١- يستحب أن تُطلب القراءة الطيبة ممن هو حسن الصوت: فهذا من السُّنة الثابتة عن النبي ﷺ، حيث قال ابن مسعود: «قال لي النبي ﷺ: (**اقرأ علي**). قال: قلت آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (**إني أشتهي أن أسمعه من غيري**). قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿**فكيف إذا**

---

(١) رواه أبو داود (١٤٥٥) (٢/١٤٨) وصححه الألباني في صحيح سنن أبو داود (١٢٩١) (١/٢٧٢) ورواه الترمذي (٢٩٤٦) (٨/١٤٢) وابن ماجه في المقدمة (٢٢٥) (١/٨٢) ورواه أحمد في مسنده (٢/٢٥٢)، (٤٠٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧٥٤٤) (فتح الباري ٣/٥٢٧).

(٣) رواه البخاري تعليقاً. فتح الباري (١٣/٥٢٧)، ورواه أبو داود (١٤٦٨) (٢/١٥٥) والنسائي (١٣٤٢) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٠٣) وصحيح الجامع (٣٥٨٠).

جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء:٤١] قال لي: (كف)، أو (أمسك). فرأيت عينيه تذرفان ».(١).

٢٢- استحب جماعات من العلماء أن تستفتح مجالس العلم بقراءة قارئ حسن الصوت.

٢٣- لا ينبغي أن يتقيد القارئ في بدء قراءته أو ختمها، بعلامات الأرباع والأعشار والأجزاء، إذا لم يكتمل المعنى، أو إذا حصل فيه تشويش.

٢٤- تكره القراءة في مواضع وأحوال مخصوصة منها حالة الركوع، والسجود، والتشهد وغيرها من أحوال الصلاة سوى القيام، وتكره القراءة بما زاد على الفاتحة للمأموم إذا سمع قراءة الإمام، وتكره القراءة في حال النعاس، وحال الاستماع للخطبة لمن يسمعها.

٢٥- لا ينبغي تخصيص مناسبات معينة بقراءة سور معينة بغير دليل صحيح، وذلك كمن يقرأ في صبح الجمعة بسور فيها سجدة غير سورة الم تنزيل السجدة، أو يقرأ في التراويح سورة الأنعام في الركعة الأخيرة في الليلة السابعة، لاعتقاد أنها مستحبة.

٢٦- إذا ألقى عليه أحد السلام وهو يقرأ فينبغي له أن يتوقف عن القراءة ويرد عليه السلام، ولو عطس غيره وهو يقرأ في غير الصلاة وقال: الحمد لله فيستحب للقارئ أن يشمته فيقول: رحمك الله، ولو سمع القارئ المؤذن فينبغي أن يقطع القراءة ويجيب المؤذن.

٢٧- إذا مرّ بسجدة تلاوة فيشرع له أن يسجد عندها.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٥٥) فتح الباري (٨/٧١٧)، ورواه مسلم (٨٠٠) (١/٥٥١).

خطورة هجر القرآن

إذا كان الوصال وحسن الصحبة مع القرآن من الأسباب الموجبة لمحبة الله، فإن هجر القرآن وإساءة الأدب في صحبته من الأسباب الجالبة لبغضه سبحانه وتعالىٰ.

وكما أن الناس في حسن صحبتهم للقرآن علىٰ مراتب ودرجات، فإن منهم من يتقلبون بسبب هجره في مهاوي الدركات.

والمعرضون عن القرآن الهاجرون له، قد شكاهم النبي ﷺ إلىٰ ربه عز وجل: ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ [سورة الفرقان: ٣٠]. فكانوا إذ تلىٰ عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتىٰ لا يسمعوه، فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، والعدول عنه إلىٰ غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو، أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه»[١] فالهاجرون لكتاب الله إذن أصناف وأنواع، وعلىٰ المؤمن أن يربأ بنفسه أن يكون داخلاً تحت أي صنف منهم بوقوعه في أحد أنواع هجر القرآن.

قال ابن القيم – رحمه الله –: «هجر القرآن أنواع أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به، والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه... والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه. والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله تعالىٰ: ﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾[سورة الفرقان: ٣٠] [٢] وهذا كله بالإضافة إلىٰ هجر التلاوة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٠٦).

(٢) الفوائد – للإمام ابن قيم الجوزية ص٨٢.

وهناك لون من هذا الهجر كثر وشاع في عصرنا يتمثل في وضع المصحف في مكان معين للتبرك بوجوده فحسب؛ كأن يوضع علىٰ رف في البيت أو في مؤخرة السيارات أو مقدماتها حتىٰ يعلوه التراب والغبار بما يشهد بأنه مهجور. وهذا سوء أدب مع كتاب الله. يقول ابن الجوزي رحمه الله: «من كان عنده مصحف، ينبغي له أن يقرأ فيه كل يوم آيات يسيرة لئلا يكون مهجوراً»(١).

وكما وصف ابن الجوزي - رحمه الله - علاجاً لهذا النوع الأخير من الهجر، فقد دل في موضع آخر علىٰ علاج أمور توقع في هجر الفهم والتدبر قال: «وليتخلَّ التالي عن موانع الفهم، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التالي، فيصرف همته عن فهم المعنىٰ، ومن ذلك أن يكون التالي مصراً علىٰ ذنب، أو متصفاً بكبر أو مبتلىٰ بهوىٰ مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه فهو كالجرب علىٰ المرآة، يمنع من تجلي الحق، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءىٰ في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة»(٢).

هذا عن أنواع الهاجرين وأحوالهم، أما عن الواصلين، فإنهم في صلتهم بالقرآن علىٰ مراتب ودرجات حسب ما أنعم الله عليهم من تفرغ وهمة، وقد كان السلف يحيون قلوبهم بكتاب الله في الليل والنهار، فيتعاهدون تلك القلوب بريٍّ دائم متجدد يُبقي عليها حية غضة يقظة. قال ابن الجوزي «أما مقدار القراءة فقد اختلفت فيها عادات السلف، فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة ختمة، ومنهم من كان يختم في اليوم والليلة أكثر من ذلك، ومنهم من كان يختم في كل ثلاث ختمة، ومنهم من كان يختم في كل أسبوع، ومنهم من كان يختم في كل شهر اشتغالاً بالتدبر أو بنشر العلم أو تعليمه، أو بنوع من التعبد غير القراءة أو بغيره من اكتساب

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٤٦.

(٢) المصدر السابق ص٤٧.

الدنيا»[١]... ثم قال: «وأولىٰ الأمر ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم»[٢].

وأكثر أهل العلم علىٰ أن إحسان القراءة وفهمها أفضل من كثرة القراءة بغير فهم. قال ترجمان القرآن ابن عباس - رضي الله عنهما - «لأن أقرأ البقرة وآل عمران وأرتلهما وأتدبرهما، أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة». لذلك قال الزركشي - رحمه الله -: «كره قوم قراءته في أقل من ثلاث، وحملوا عليه حديث: (**لا يفقه مَنْ قرأ القرآن في أقل من ثلاث**)[٣] والمختار - وما عليه أكثر المحققين - أن ذلك يختلف بحال الشخص في النشاط والضعف والتدبر والغفلة، لأنه روي عن عثمان رضي الله عنه أن كان يختمه في ليلة واحدة. ويكره تأخير ختمه أكثر من أربعين يوماً»[٤].

ولكن الإنسان قد يعجز لظروف قاهرة أن يختم القرآن مرة في الشهر لعارض من مرض أو شغل أو جهاد أو نحوه، فلا أقل من ختمه مرة كل ستة أشهر، أي مرتين في السنة وقد أشار إلىٰ ذلك الزركشي - نقلاً عن أبي الليث - قال: «ينبغي أن يختم القرآن في السنة مرتين، إن لم يقدر علىٰ الزيادة، وقد روىٰ الحسن بن زياد عن أبي حنيفة أنه قال: من قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدىٰ للقرآن حقه، لأن النبي ﷺ عرضه علىٰ جبريل في السنة التي قبض فيها مرتين»[٥].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٤٥.

(٢) المصدر السابق ص ٤٥.

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٩٤) (٢/١١٦) والترمذي (٢٩٥٠) وقال حسن صحيح (٨/١٤٥) وأخرجه ابن ماجه في الإقامة (١٣٤٧) (١/٤٢٨) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ح (١١٠٧) (١/٢٢٥).

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/٤٧١).

(٥) البرهان في علوم القرآن (١/٤٧١).

واختم الكلام عن شرح هذا السبب من أسباب المحبة بتنبيه مهم وهو: أن كل ما يقال عن قراءة القرآن لمن يقرأ، يقال عن سماع القرآن لمن لم يعرف القراءة، وقد وعد الله سبحانه كل من استمع القرآن بإنصات وخشوع بالرحمة؛ فقال سبحانه: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٤] أي: أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه، وتتدبروا مواعظه، وانصتوا لقراءته حتىٰ تنقضي، إعظاماً له واحتراماً، لكي تفوزوا بالرحمة التي هي من أعظم ثمراته»[١].

فالرحمة أعظم ثمراته حقاً، ولكن داخل هذه الرحمة رحمات، ومع هذه الثمرة ثمرات، يذكرها ابن القيم - رحمه الله - ويبين أن أولىٰ الناس بنوالها، هم الذين اختاروا سماع القرآن علىٰ سماع مزامير الشيطان، والذين قدموا الإنصات إلىٰ الآيات علىٰ سماع الأبيات، وسماع كلام رب الأرض والسماء علىٰ سماع الأدباء والشعراء، فلن يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة وفكرة في آية ودلالة علىٰ رشد، ورداً علىٰ ضلالة، وإرشاداً من غي، وبصيرة من عمىٰ، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة، وهداية إلىٰ نور، وإخراجاً من ظلمة، وزجراً عن هوىٰ، وحثاً علىٰ تقىٰ، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وعزاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل»[٢]. وكل هذا وغيره من الرحمات يحصل للإنسان إذا عمل بتلك الوصية:

«من قُرِئَ عليه القرآن، فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به»[٣].

* * *

---

(١) تفسير القاسمي، المسمىٰ: محاسن التأويل، تأليف الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٧/٢٩٣٣). دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

(٢) مدارج السالكين (١/٤٨٥).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٠٤).

السبب الثاني

التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها موصلة إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

[التقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها موصلة إلىٰ درجة المحبوبية بعد المحبة].

من المعلوم أن أداء الفرائض، هو أفضل ما يُتقرب به إلىٰ الله، وحسب مؤديها علىٰ تمامها فضلاً أنه موعود بالفلاح فوزاً بالجنة ونجاة من النار وذلك مادل عليه حديث طلحة بن عبيد الله؛ أن رجلاً من أهل نجد جاء إلىٰ رسول الله ﷺ ثائر الرأس، يُسمع دوي صوته، ولا يفقه ما يقول، حتىٰ دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسو ل الله ﷺ: (**خمس صلوات في اليوم والليلة**).

فقال: هل عليَّ غيرها؟

قال: (**لا، إلا أن تطوَّع**). قال رسول الله ﷺ: (**وصيام رمضان**).

قال: هل عليَّ غيره؟

قال: (**لا، إلا أن تطوع**).

قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة.

قال: هل عليَّ غيرها؟

قال: (**لا، إلا أن تطوع**).

قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد علىٰ هذا ولا أُنقص. قال رسول الله ﷺ (**أفلح إن صدق**)(١).

فمثل هذا الرجل يفلح بأداء الفرائض ولكن من يأتي بالتطوعات والنوافل يكون أفلح منه وأعلىٰ درجة وأكثر قربى. كيف والفرائض قلما يأتي بها صاحبها خالية من النواقص والقوادح؟

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦) فتح الباري (١/ ١٣٠)، وأخرجه مسلم (١٢) (١/ ٤١).

فمؤدي الفرائض كاملة محب لله ومؤديها وبعدها النوافل محبوب من الله؛ يدل على ذلك الحديث الذي يرويه رسول الله ﷺ عن رب العزة سبحانه وتعالى وفيه: (... وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني، لأعيذنه)(١).

فللمتقرب بالنوافل إذن خصوصية وميزة، تجعله أعلى مرتبة من مؤدي الفرائض فقط؛ ذلك لأن الفرائض مطلوبة من العبد أصلاً وهو مكلف بها وآثم بتركها والتفريط فيها. وقد مثَّل ابن حجر - رحمه الله - لذلك بمثل يقرب الفكرة ويجلِّي الصورة. قال: « جرت العادة أن التقرب يكون غالباً بغير ما وجب على المتقرب، كالهدية والتحفة، بخلاف من يؤدي ما عليه من خراج أو يقضي ما عليه من دين » ثم أضاف - رحمه الله - بيان فائدة أخرى للنوافل فقال: « وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض، كما صح في الحديث: (انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل به فريضته..) الحديث بمعناه(٢). فتبين أن المراد بالتقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض، لا من أخل بها »(٣).

فهما صنفان من الناجين الفائزين، الصنف الأول المحب لله: مؤد لفرائض الله، وقَّاف عند حدوده، والصنف الثاني المحبوب من الله: متقرب بعد الفرائض بالنوافل، وهذا مقصود ابن القيم - رحمه الله - بقوله: (...

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) فتح الباري (١١ / ٣٤٨).

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٤١٣) (٢ / ٨١) وقال: حسن غريب وأخرجه ابن ماجه (١٤٢٥) (١ / ٤٥٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٧) (١ / ١٣٠).

(٣) فتح الباري، شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (١١ / ٣٥١).

فإنها موصلة إلىٰ درجة المحبوبية بعد المحبة). فالمحبون المتقربون بالفرائض والمحبوبون المتقربون بالنوافل بعد الفرائض هم أولياء الله وأصفياؤه، وخيرته من الخلق، وفي هؤلاء وأولئك تنزلت الآيات ووردت الأحاديث. يقول ابن رجب الحنبلي - رحمه الله -: «أولياء الله المقربون قسمان:

أحدهما: من تقرب إلىٰ الله بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات وترك المحرمات؛ لأن ذلك كله من فرائض الله التي افترضها علىٰ عباده. وأهل هذا القسم هم المقتصدون الذين قال الله فيهم ﴿ومنهم مقتصد﴾ [سورة فاطر: ٣٢] وهم أصحاب اليمين الذين قال فيهم: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ [سورة الواقعة: ٢٧]. فأداء الفرائض أفضل الأعمال؛ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله عز وجل).

الثاني: من تقرب إلىٰ الله تعالىٰ بعد أداء الفرائض بالنوافل، وهم أهل درجة السابقين المقربين.. لأنهم تقربوا إلىٰ الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع. وذلك يوجب للعبد محبة الله كما قال تعالىٰ في الحديث القدسي: (ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه) فمن أحبه الله رزقه محبته وطاعته والحظوة عنده»[1]. والنوافل المتقرب بها إلىٰ الله تعالىٰ أنواع، وهي الزيادات علىٰ أنواع الفرائض كالصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة ولنضرب أمثلة علىٰ كل منها:

أولاً: النوافل في الصلاة:

وهي ثلاثة أقسام: سنن، ومستحبات، وتطوعات.

---

(١) جامع العلوم والحكم، في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم. لابن رجب الحنبلي تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجي (٢ / ٣٣٠) مؤسسة الرسالة.

والمقصود بالسُّنة ما نقل عن رسول الله ﷺ المواظبة عليه. والمقصود بالمستحب ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه. والمقصود بالتطوعات ما وراء ذلك مما لم يرد به خبر، لكن ورد الإذن به، والعبد يتطوع بفعله(١).

ومثال القسم الأول - أي السنن الرواتب:

١- عشر ركعات في الحضر، ثبت عن رسول الله ﷺ انه كان يحافظ عليها. قال عبد الله بن عمر: (حفظت من النبي ﷺ عشر ركعات، ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب في بيته، وركعتين بعد العشاء في بيته وركعتين قبل صلاة الصبح)(٢).

فهذه الركعات العشر - كما قال ابن القيم - كان النبي ﷺ لا يدعها في الحضر ابداً، ولما فاتته الركعتان قبل الظهر قضاهما بعد العصر وداوم عليها(٣).

٢- وكان النبي ﷺ يصلي اربعاً قبل الظهر، فقد روت عائشة رضي الله عنها انه ﷺ كان لايدع اربعاً قبل الظهر(٤).

وكان عليه الصلاة والسلام يصلي تلك الأربع لفضيلة خاصة بالوقت بعد الزوال، وهو الوقت الذي ينتصف فيه النهار حيث ثبت عنه ﷺ انه قال عن تلك الساعة: (**إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح**)(٥).

---

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين ص٣١.

(٢) رواه البخاري (١١٨٠) فتح الباري (٣/ ١١٨٠). ورواه مسلم في صحيحه (٧٢٩) (١/ ٥٠٤).

(٣) زاد المعاد في هدى خير العباد للإمام ابن قيم الجوزية. تحقيق شعيب وعبدالقادر الارناؤوط (١/ ٣٠٨) مؤسسة الرسالة بيروت.

(٤) رواه البخاري (١١٨٢). فتح الباري (٣/ ١١٨٠).

(٥) رواه الترمذي في سننه (٤٧٨) (٢/ ١١٦) وقال: حديث حسن غريب. وصححه =

وإذا صلىٰ المرء مكان الركعتين قبل الظهر - في حديث عبد الله بن عمر - الركعات الأربع المذكورة في حديث عائشة رضي الله عنها فإنه يكون قد صلىٰ اثنتي عشرة ركعة ويكون بذلك قد أحرز الفضل الذي ثبت به الخبر عن أم حبيبة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**من صلىٰ في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة، بني له بهن بيت في الجنة**)[١]. وجاء في السنن تعيين تلك الركعات أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب وركعتين بعد العشاء وركعتين قبل صلاة الفجر[٢].

٣- ومن الصلوات التي كان النبي ﷺ يحافظ عليها صلاة الوتر. فقد كان لا يدعها هي وركعتي الفجر في سفر ولا حضر، وأمر عليه الصلاة والسلام بها فقال: (**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً**)[٣].

قال ابن القيم: «وكان في السفر يواظب علىٰ سنة الفجر والوتر، أشد من جميع النوافل دون سائر السنن، ولم ينقل عنه في السفر أنه صلىٰ سنة راتبة غيرهما»[٤].

ومثال القسم الثاني - وهو المستحبات:

صلاة الضحىٰ. وقد وردت فيها أحاديث صحيحة تؤكد فضلها حتىٰ عدَّها ابن الجوزي في منزلة السنن الرواتب[٥] ولكن الأظهر أنها ليست من

= الألباني في صحيح الترمذي (٣٩٦) (١/١٤٧)، ورواه أحمد في مسنده (٣/٤١١).

(١) رواه مسلم في صحيحه (٧٢٨) (١/٥٠٣).

(٢) في حديث رواه أبو داود في سننه (١٢٥٠) (٢/٤٢) ورواه الترمذي (٤١٥) (٢/٨٢) والنسائي (٣/٢٧٦١)، وابن ماجه (١١٤١) (١/٣٦١). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقال الألباني في صحيح الترمذي (صحيح) (٣٣٨) (١/١٣١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٩٩٨). فتح الباري (٢/٥٦٦).

(٤) زاد المعاد (١/٣١٥).

(٥) انظر مختصر منهاج القاصدين ص٣١.

الرواتب لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ المحافظة عليها وكذلك لم ينقل عن كبار صحابته المحافظة عليها. ونقل ابن القيم عن جماعة من أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان يصلي في الضحىٰ لسبب من الأسباب، فقد صلاها يوم الفتح ثماني ركعات لأجل الفتح، وصلاها في بيت عتبان بن مالك لما طلب من الرسول ﷺ أن يصلي في مكان في بيته ليتخذه مسجداً بعد أن كُف بصره وحيل بينه وبين المسجد، وكان يصليها إذا قدم من مغيبه؛ فإنه ﷺ كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلىٰ فيه ركعتين، وكذلك كان يصلي الضحىٰ إذا أتىٰ مسجد قباء[١].

وصلاة الضحىٰ أيضاً تصلىٰ عوضاً وخلفاً عن صلاة الليل لمن لم يحافظ عليها. وبعض الأحاديث الواردة في فضلها تحمل علىٰ ذلك. قال ابن القيم: «ومن تأمل الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة، وجدها لا تدل إلا علىٰ هذا القول، وأما أحاديث الترغيب فيها والوصية بها؛ فالصحيح منها كحديث أبي هريرة [٢] وأبي ذر؛ لا يدل علىٰ أنها سنة راتبة لكل أحد، وإنما أوصىٰ أبا هريرة بذلك، لأنه قد روي أن أباهريرة كان يختار درس الحديث بالليل علىٰ الصلاة، فأمره بالضحىٰ بدلاً من قيام الليل، ولهذا أمره ألا ينام حتىٰ يوتر، ولم يأمر بذلك أبا بكر وعمر وسائر الصحابة»[٣].

فالحاصل أن صلاة الضحىٰ من النوافل المستحبة، لاالراتبة. وقد ورد في فضلها عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**يصبح علىٰ كل سُلامىٰ من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقه، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحىٰ**)[٤].

---

(١) انظر زاد المعاد (١/ ٣٥٤ - ٣٥٦).

(٢) يأتي نصه وتخريجه ص ٤١ .

(٣) زاد المعاد (١/٣٥٧).

(٤) رواه مسلم (٧٢٠) (١/٤٩٨) وأبو داود (١٢٨٥) (٢/ ٦٠).

ومثال القسم الثالث من نوافل الصلاة - وهو التطوعات: الركعتان قبل المغرب، فقد أذن النبي ﷺ لأصحابه بصلاتهما. قال ابن القيم: «وأما الركعتان قبل المغرب، فإنه لم ينقل عنه ﷺ أنه كان يصليهما، وصح عنه أنه أقر صحابته عليهما وكان يراهم يصلونها، فلم يأمرهم ولم ينههم»[١].

وثبت تخييره ﷺ لأصحابه في الصلاة قبل المغرب في حديث عبد الله المزني قال قال رسول الله ﷺ: (**صلوا قبل صلاة المغرب - قال في الثالثة - لمن شاء**) كراهية أن يتخذها الناس سنة[٢].

ثانياً: نوافل الصيام:

وهي أيضاً أقسام ،فما نقل عن النبي ﷺ المواظبة عليه في الغالب فهو سنة مؤكدة، وما وردت الأحاديث بفضله ولم ينقل عن النبي ﷺ المواظبة عليه فهو من مستحبات الصوم. أما ما وراء ذلك من الصيام في الأيام والأحوال غير المنهي عنها، فهو من التطوعات المطلقة، المثاب عليها.

فمن القسم الأول ما يلي:

١- صيام يومي الخميس والإثنين. فقد كان رسول الله ﷺ يتحرىٰ صومهما، وهذا ما أخبرت به عائشة رضي الله عنها ربيعة الغار عندما سألها عن صيام رسول الله ﷺ، قالت: كان يتحرىٰ صيام الإثنين والخميس[٣] وكان ﷺ يقول: (**تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس، وأحب أن يعرض عملي وأنا صائم**)[٤].

---

(١) زاد المعاد (١/٣١٢) والحديث الدال على ذلك في صحيح مسلم (٨٣٦) (٥٧٣/١)..

(٢) رواه البخاري (١١٨٣) فتح الباري (٣/٧١).

(٣) أخرجه الترمذي (٧٤٥) (٣/٩٣) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني (٥٩٥) صحيح الترمذي (١/٢٢٦)، وأخرجه النسائي (٤/٢٠٢) وابن ماجه (١٧٣٩) (١/٥٥٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) رواه الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة (٧٤٧) (٣/٩٣) وقال: حسن غريب =

٢- صيام الثلاثة البيض:

وهي الأيام الثلاثة التي يكتمل في لياليها البدر في منتصف الشهر وقد كان الرسول ﷺ يواظب على صيامها، فعن أبي ذر، رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: (**من كان منكم صائماً من الشهر ثلاثة أيام، فليصم الثلاث البيض**)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (**أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر؛ وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام**)[٢].

٣- صيام يوم عاشوراء:

وقد كان النبي ﷺ يتحرى صومه على سائر الأيام ويأمر بصيامه، ولما قدم المدينة، وجد اليهود تصومه وتعظمه فقال: (**نحن أولى بموسى منكم**) فصامه، وامر بصيامه[٣]، وذلك قبل فرض رمضان، فلما فرض رمضان قال: (**من شاء صامه ومن شاء تركه**)[٤]. يعني انه ﷺ أسقط وجوبه بفرض رمضان، وبقي استحبابه وكونه سنة مؤكدة[٥] وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس أنه لما قيل لرسول الله ﷺ إن هذا اليوم تعظمه اليهود والنصارى قال: (**إن بقيت إلى قابل، لأصومن التاسع**) فلم

= وصححه الالباني في صحيح الترمذي (٥٩٦) (١/٢٢٧).

(١) رواه النسائي (٤/٢٢٢) وصححه الالباني في صحيح النسائي (٢٢٧٦) ورواه احمد في مسنده (٥/٢٥٢) واخرجه ابن حبان (٩٤٣).

(٢) رواه البخاري (١١٧٨) فتح الباري (٣/٦٨) ورواه مسلم (٧٢١) (١/٤٩٩).

(٣) اخرجه مسلم (١١٣٠) (٢/٧٩٥).

(٤) رواه مسلم (١١٢٥) (٢/٧٩٢).

(٥) انظر زاد المعاد (٢/٧١).

يأت العام القابل حتى توفي رسول الله ﷺ(١) قال الإمام الترمذي: وقد اختلف أهل العلم في يوم عاشوراء، فقال بعضهم يوم التاسع، وقال بعضهم يوم العاشر، وروي عن ابن عباس أنه قال: صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود، وبهذا الحديث يقول الشافعي، وأحمد، وإسحاق(٢) وصح أنه يكفر السنة الماضية(٣).

٤- صيام يوم عرفة لغير الواقف بها:

فقد صح عنه ﷺ أنه قال عنه: (يكفرُ السنة الماضية والباقية)(٤).

٥- صيام ستة أيام من شوال:

وقد كان ﷺ يصومها، وصح عنه أنه قال: (من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر)(٥).

القسم الثاني: المستحبات من الصيام: ومنها:

١- صيام ثلاثة أيام من كل شهر:

فعن معاذة العدوية أنها سألت عائشة زوج النبي ﷺ أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت نعم، فقلت لها: من أي أيام الشهر كان يصوم؟ قالت: لم يكن يبالي من أي أيام الشهر يصوم(٦).

٢- ومن المستحبات صيام السبت والأحد، فقد كان ﷺ يصومهما

---

(١) رواه مسلم (١١٣٤) (٢/٧٩٨).

(٢) سنن الترمذي (٣/١٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (١١٦٢) (٢/٨١٨).

(٤) أخرجه مسلم (١١٦٢) (٢/٨١٨) وأحمد في مسنده، ٥/٢٩٦، ٢٩٧.

(٥) أخرجه مسلم (١١٦٤) (٢/٨٢٢) واللفظ له، وأخرجه أحمد في مسنده (٥/٤١٧، ٤١٩) وأبو داود (٢٤٣٣)، (٢/٨١٣) والترمذي (٧٥٩) (٣/١٠٥) وابن ماجه (١٧١٦) (١/٥٤٧).

(٦) أخرجه مسلم (١١٦٠) (٢/٨١٨).

كثيراً، يقصد بذلك مخالفة اليهود والنصارىٰ. فعن كُريب مولىٰ ابن عباس قال «أرسلني ابن عباس رضي الله عنه، وناس من أصحاب النبي ﷺ إلىٰ أم سلمة أسألها: أي الأيام كان النبي ﷺ أكثرها صياماً؟ قالت: يوم السبت والأحد،ويقول إنهما عيد للمشركين، فأنا أحب أن أخالفهم»(١). ووجه المخالفة لأهل الكتاب في صيامه، أنهم إذا كانوا يفطرون فيه لاتخاذهم إياه عيداً فإنه يخالفهم بصيامه، وإن كانوا يفردون السبت بالصيام كاليهود، أو يفردون الأحد بالصيام كالنصارىٰ فإنه ﷺ كان يصومهما ولا يفرد واحداً منهما بالصيام(٢).

القسم الثالث: التنفل المطلق في الصيام:

وهو صيام ماوراء الأيام المخصوصة بالسنية المؤكدة أو الاستحباب، والتي وردت بها الأحاديث. فصيام أي يوم من السنة – عدا ما ورد النهي عن صيامه – هو من النوافل المتقرب بها إلىٰ الله، الجالبة لمحبته، والدافعة لمقته وعذابه. قال ﷺ: (**من صام يوماً في سبيل الله بعَّدَ الله وجهه عن النار سبعين خريفاً**) (٣).

و يلاحظ أن صيام التطوع يزداد فضلاً بحسب شرف الزمان كما أن صلاة التطوع تزداد ثواباً بحسب شرف المكان، ولهذا ينبغي للإنسان أن يتحرىٰ تلك الأيام الفاضلة، وسوف يجد السُّنة المطهرة خير دليل له علىٰ تلك الأزمنة الشريفة الموزعة علىٰ شهورالعام وأيامه والتي يندب فيها الصيام. قال ابن الجوزي رحمه الله: «وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٢٣ – ٣٢٤) وابن خزيمة (٢١٦٧) وابن حبان (٩٤١) والحاكم (١/٤٣٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) انظر زاد المعاد (٢/ ٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٤٠) فتح الباري (٦/٥٦) وأخرجه مسلم (١١٥٣) (٢/٨٠٨) واللفظ للبخاري.

سنة، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان وكصيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة والمحرم، وبعضها يتكرر في كل شهر، كأوله وأوسطه وآخره، فمن صام أول الشهر وأوسطه وآخره فقد أحسن، غير أن الأفضل أن يجعل الثلاثة أيام البيض، وبعضها يتكرر في كل أسبوع، وهو يوم الاثنين والخميس. وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً»(١).

ثالثاً: صدقة التطوع:

هي ما زاد على الزكاة المفروضة، فالمتطوع بالصدقة محب لله، ومحبوب من الله، لأنه غلب نفسه المجبولة على حب المال. قال تعالى عن الإنسان: ﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾ [سورة العاديات: ٨]. فلما آثر المنفق محبة ربه على محاب نفسه، ولم يمنعه الخوف من الفقر في الدنيا، أمنه الله من كل خوف في الآخرة كما قال سبحانه ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٤].

فالله تعالى يحب من عبده أن يكون جواداً سخياً مبسوط اليد بالعطاء، ولهذا يضاعف الله أجور المتصدقين كما قال سبحانه ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١]. وعلى العبد الذي جاهد نفسه في إخراج المال في سبيل الله أن يجاهدها لتحصين هذا المال وتطييبه، وتنقيته من أقذار الحرام. فإن الصدقة لكي تقبل يشترط فيها أن تكون من كسب طيب؛ قال ﷺ: (**إن الله طيب، لا يقبل إلا طيباً**)(٢).

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٥) (٢/٧٠٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: (**من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتىٰ تكون مثل الجبل**)(١) وهذا التحنن والتلطف من الله تعالىٰ بهذا العمل المتواضع من العبد، مما يدل علىٰ محبته تعالىٰ لهذا العمل منه...

وكما أن نوافل الصدقة جالبة لمحبة الله، فإنها دافعة لمقته وغضبه ومنجية من آثار الآثام كما قال ﷺ: (**والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**)(٢). إن أجور المتنفلين في الصلاة والصيام تتفاضل بحسب شرف المكان والزمان - كما مرَّ - وكذلك تتفاضل أجور المتطوعين بالصدقات، وميزان ذلك قول النبي ﷺ لمن سأله: أي الصدقة أفضل؟ قال: (**أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح تخشىٰ الفقر وتأمل الغنىٰ. ولا تهمل حتىٰ إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**)(٣).

والمتطوع بالصدقة عن محبة لله تعالىٰ وإخلاص له تراه يتنقل بين أنواع وأشكال العطاء عن طيب نفس وسخاء يد. وهو يفرح ويُسر بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذ. وهذا كان شأن رسولنا ﷺ. يصف ابن القيم رحمه الله أحوال النبي ﷺ وهديه في صدقة التطوع فيقول: «كان إذا عرض له محتاج آثره علىٰ نفسه، تارة بطعامه، وتارة بلباسه، وكان ينوع في أصناف عطائه وصدقته، فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة، وتارة بالهدية

---

(١) رواه البخاري (١٤١٠) فتح الباري (٣/٣٢٦) ورواه مسلم (١٠١٤) (٢/٧٠٢).

(٢) رواه النسائي في سننه الكبرىٰ - كما في التحفة (٨/٣٩٩) والترمذي في سننه (٢٦١٦) (٧/٢٨٠) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي ح (٢١١٠) (٢/٣٢٨) ورواه أحمد (٥/٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٤١٩) فتح الباري (٣/٣٣٤)، وأخرجه مسلم (١٠٣٢) (٢/٧١٦) واللفظ للبخاري.

وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعاً. كما فعل ببعير جابر، وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر، ويشتري الشيء فيعطي أكثرمن ثمنه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثرمنها أو بأضعافها، تلطفاً وتنوعاً في ضروب الصدقة والإحسان بكل ممكن، وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه وبحاله وبقوله، فيخرج ما عنده ويأمر بالصدقة ويحض عليها، ويدعو إليها بحاله وقوله، فإذا رآه البخيل الشحيح دعاه حاله إلىٰ البذل والعطاء، وكان من خالطه وصحبه ورأىٰ هديه لا يملك نفسه من السماحة والندىٰ»(١). فهذا تنويع منه ﷺ في ضروب الصدقة بالمال، وهناك تنويع من لون آخر، يعطي الرسول ﷺ به للصدقة مفهوماً أوسع من إنفاق المال فإنه ﷺ، لما جاءه الذين عدموا المال يشكون من سبق أصحاب الأموال قائلين «يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم قال لهم عليه الصلاة والسلام: (**أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟: إن بكل تسبيحة صدقه، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة**) قالوا: يا رسول الله: أياتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرا قال: (**أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**)(٢).

فالصدقة بالمال - علىٰ تنوعها - ليست هي الصدقة فقط، بل هناك صدقه بغير المال. يقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«والصدقة بغير المال نوعان:

أحدهما: ما فيه تعدية الإحسان إلىٰ الخلق، فيكون صدقة عليهم،

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٢، ٢٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١٠٠٦) (٢/ ٦٩٧) واحمد في مسنده (٥/ ١٦٧، ١٦٨)، وابو داود (٥٢٤٣) و (٥٢٤٤) (٥/ ٤٠٧)، وابن حبان في صحيحه (٨٣٨).

وربما كان افضل من الصدقة بالمال، وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دعاء إلىٰ طاعة الله، وكف عن معاصيه وذلك خير من النفع بالمال، وكذلك تعليم العلم النافع وإقراء القرآن وإزالة الأذىٰ عنهم، وكذلك الدعاء للمسلمين والاستغفار لهم. كما في حديث (**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن النكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة**)(١).

والنوع الثاني من الصدقة التي ليست مالية:

ما نفعه قاصر علىٰ فاعله، كانواع الذكر من التكبير والتسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار، وكذلك المشي إلىٰ المساجد صدقة. ولم يذكر في شيء من الأحاديث أن الصلاة والصيام، والحج والجهاد صدقه، وأكثر هذه الأعمال أفضل من الصدقات المالية، لأنه إنما ذكر ذلك جواباً لسؤال الفقراء الذين سألوه عما يقاوم تطوع الأغنياء بأموالهم»(٢).

رابعاً: التطوع في الحج والعمرة:

وما يُؤدي من ذلك التطوع - حجاً أو عمرة - بعد الفرض، فهو نافلة مقربة إلىٰ محبة الله ومرضاته، ومطهرة من الإثم وآفاته. قال رسول الله ﷺ: (**العمرة إلىٰ العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**)(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٧) (٦/١٨٨) وقال: حسن غريب وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٥٩٤) (٢/١٨٥) ورواه البخاري في الأدب المفرد (٨٩١) وصححه ابن حبان (٤٧٤)، (٥٧٩).

(٢) جامع العلوم والحكم ص٥٩، وما بعدها - باختصار.

(٣) رواه البخاري (١٧٧٣) فتح الباري (٣/٦٩٨).

والعمرة مفضلة في كل مواسم العام وأيامه، ولكن فضلها يضاعف في رمضان. لقوله ﷺ: (عمرة في رمضان حجة)[١] وثبت في سنن أبي داود أن امرأة طلبت من زوجها أن يسأل رسول الله ﷺ: «ما يعدل حجة معك؟» فقال رسول الله ﷺ: (أقرئها السلام ورحمة الله وبركاته، وأخبرها أنها تعدل حجة معي - يعني عمرة رمضان)[٢]. هذا .. وعلى العبد المسلم أن يوازن بين أرباحه في عبادته، فيختار منها ما يعود عليه بربح أكبر، فهو في تجارة مع الله، فعليه أن يختار من النوافل والتطوعات أكثرها في الأجر، وأيسرها على النفس وأصلحها للقلب.

يقول ابن الجوزي - رحمه الله -: «أعلم أن من رزق فطنة علم المقصود بالصوم، فحمل نفسه قدر مالا يعجزه عما هو أفضل منه، فقد كان ابن مسعود قليل الصوم، وكان يقول: إذا صمت ضعفت عن الصلاة وأنا أختار الصلاة على الصوم. وكان بعضهم إذا صام ضعف عن قراءة القرآن، فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة»[٣]

وعلى العبد المؤمن أيضاً أن يتنقل بقلبه بين الأعمال التي تذيقه حلاوة الإيمان؛ وذلك بالتنويع بين أعمال أهل الإحسان؛ قال الحسن البصري رحمه الله: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق»[٤].

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٧٨٣) فتح الباري (٣/ ٧٠٥).

(٢) رواه أبو داود في سننه (١٩٩٠) (٢/ ٥٠٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٧٥٣) (١/ ٣٧٤).

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص٤٠.

(٤) مدراج السالكين (٢/ ٤٢٤).

السبب الثالث

دوام ذكره علىٰ كل حال، باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة علىٰ قدر نصيبه من هذا الذكر.

[دوام ذكره علىٰ كل حال، باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة علىٰ قدر نصيبه من هذا الذكر].

نعم.. فذكر الله تعالىٰ هو شعار المحبين لله، المحبوبين من الله، قال رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه)(١).

فصاحب الأذكار مذكور عند الله بالثناء والمحمدة والمحبة، وموعود بالمغفرة والأجور العظيمة. قال تعالىٰ: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ [سورة: البقرة: ١٥٢]. وقال سبحانه: ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ [سورة الاحزاب: ٣٥].

وقول ابن القيم رحمه الله عن الذاكر: «فنصيبه من المحبة علىٰ قدر نصيبه من هذا الذكر» قول صحيح مستقرأ من مجمل نصوص الوحي، فنحن نرىٰ ان الله تعالىٰ لا يامر في كتابه بالذكر فقط، بل يامر بالإكثار منه:

* يقول سبحانه آمراً بالإكثار من الذكر: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً، وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ [سورة الاحزاب: ٤١].

* ويثني علىٰ الذاكرين الله علىٰ كل حال ويصفهم بانهم من أولي الالباب والنُهىٰ؛ فيقول: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم ﴾ [سورة آل عمران: ١٩١].

* ويعلق فلاحهم علىٰ استدامة ذكره والإكثار منه ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الجمعة: ١٠].

---

(١) رواه احمد (٢ / ٥٤٠) وابن ماجه (٣٧٩٢) (٢ / ١٢٤٦) وصححه الالباني في صحيح ابن ماجه ح (٩٣٧٩٢) (٢ / ٣١٧).

* ويخبر انه يجزيهم علىٰ داوم الذكر في الدنيا بأن يذكرهم ويكفلهم، فيقول: ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [سورة البقرة: ١٥٢].

* ويخبر انه يجزيهم في الآخرة الغفران والرضوان: ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾

[سورة الاحزاب: ٣٥].

* ولهذا كان الذكر روح الاعمال، ويظهر ذلك من اقتران أكبر الاعمال الصالحة به في القرآن.

- فلا إله إلا الله - وهي الشهادة - أفضل ما يذكر به الذاكرون.

- والذكر قرين الصلاة، قال تعالىٰ: ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾

[سورة: طه: ١٤].

- وقرين الحج: ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾ [سورة: البقرة: ١٩٨].

- وقرين الجهاد: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [سورة الانفال: ٤٥].

وكل من الصيام والزكاة والأمر بالمعروف، يتضاعف فيها الثواب مع الحضور والذكر.

ولكل هذا كانت الغفلة عن ذكر الله من علامات الحرمان من التوفيق. قال تعالىٰ: ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ [سورة الحشر: ١٩]. وقال: ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ [الاعرف: ٢٠٥].

فالخاسر كل الخاسر من غلبته دنياه علىٰ آخرته فالتهىٰ عن ذكر الله. قال تعالىٰ: ﴿ يا أيها الذين امنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ [سورة المنافقون: ٩].

أما الرابح كل الرابح، فهو الموفق لذكر الله. فذلك أكبر الربح قال تعالىٰ: ﴿ ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾

[سورة العنكبوت: ٤٥].

فما معنىٰ: ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾، ولماذا كان الذكر أكبر؟

قال المفسرون في ذلك أقوالاً:

الأول: ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات. لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات.

الثاني: أن المعنىٰ: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له، فعلىٰ هذا: المصدر مضاف إلىٰ الفاعل، وعلىٰ الأول: مضاف إلىٰ المذكور.

الثالث: أن المعنىٰ: ولذكر الله أكبر من أن يبقي معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر محق كل خطيئة ومعصية.

الرابع: أن في الصلاة أمرين عظيمين كبيرين؛ أنها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وأنها تشتمل علىٰ ذكر الله، وما تضمنته من الذكر أكبر(١). ولا تعارض بين هذه الأقوال، فهي من باب اختلاف التنوع لا التضاد فالأمر إذن مضمار سباق لمن أراد أن يستَبِق إلىٰ رضا الله ومحبته، ويستبقي لنفسه زاداً لعيش الآخرة.

قال رسول الله ﷺ: (قد سبق المفردون) قالوا: ومن المفردون يا رسول الله (قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)(٢). فالذاكرون سابقون، ولو كانوا ضعفاء، وهم الأغنياء ولو كانوا فقراء.

ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء

---

(١) يراجع تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩١)، ومدارج السالكين (٢/ ٤٢٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٦) (٤/ ٢٠٦٢). واللفظ له. ورواه أحمد (٢/ ٣٢٣).

المهاجرين جاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله: « ذهب أهل الدثور – يعني الأغنياء – بالدرجات العلا والنعيم المقيم، فقال: (وماذاك؟) قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: (أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من قد سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا مَنْ صنع مثل ما صنعتم؟) قالوا بلىٰ يا رسول الله. قال: (تسبِّحون وتكبِّرون وتحمِّدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة)، قال أبو صالح – وهو الراوي عن أبي هريرة – فرجع فقراء المهاجرين إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال: رسول الله ﷺ: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)(١).

إذن فذكر الله تعالىٰ – بعد تحقيق التوحيد وأداء الفرائض – هو زاد العبد المؤمن ورصيده عند الله، فهو رأس ماله وزينة أعماله. بل هو بضاعته في دخول الجنة ومؤهله للارتقاء في درجاتها. ولهذا فإن العبد المؤمن لا يتحسر في الآخرة علىٰ شيء حسرته علىٰ الغفلة عن ذكر الله، لأن رصيده من المحبة – ومن ثم نصيبه من القرب – ينقصان بنقصان ذكره لله في عباداته وأحواله ومجالسه؛ يقول رسول الله ﷺ: (ما يقعد قوم مقعداً لا يذكرون الله عز وجل ويصلون علىٰ النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة للثواب)(٢).

ويقول ﷺ: (مام قوم يقومون من مجلس لايذكرون الله فيه إلا

---

(١) رواه البخاري (٨٤٣) فتح الباري (٢/ ٣٧٨) ومسلم (٥٩٥) (١/ ٤١٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٤٦٣)، وصححه أحمد شاكر في تخريجه للمسند (٩٩٦٦) (١٩/ ٩٠) ورواه الحاكم (١/ ٤٩٢) وأخرجه ابن حبان (٨٥٣).

قاموا عن مثل جيفة حمار وكان لهم حسرة)(١).

ولا علاج لتلك الغفلة إلا بحمل النفس وتذليل اللسان علىٰ إكثار الذكر في كل الأحوال، حتىٰ تتطبع النفس علىٰ كثرته، ويصير ذكر الله سجية تلقائية للقلب واللسان. بهذا أوصىٰ الرسول ﷺ الرجل الذي قال له: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فبابٌ نتمسك به جامع.

فقال: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله)(٢).

ولقد وعىٰ أصحاب رسول الله ﷺ تلك الوصية وفقهوا معناها الثمين، حتىٰ أن أبا الدرداء - رضي الله عنه - قيل له: إن رجلاً أعتق مئة نسمة، قال: «إن مئة نسمة من مال رجلٍ كثير، وأفضل من ذلك إيمان ملزوم بالليل والنهار وأن لا يزال لسان أحدكم رطباً من ذكر الله عز وجل»(٣).

وكان - رضي الله عنه - يقول: «الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك»(٤).

ويستوقفنا هنا قول ابن القيم - رحمه الله - في السبب الثالث من أسباب المحبة: (**دوام ذكره علىٰ كل حال، باللسان والقلب والعمل والحال**) فاللسان أداة للذكر، والقلب مصدره، والأعمال والأحوال علامات دالة علىٰ مواطأة قلب الذاكر للسانه، فالقلب إذن هو القاصد، واللسان

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٥٥) (٥/١٨١) وصححه الألباني (٤٠٦٤) صحيح سنن أبي داود ورواه الحاكم في المستدرك (١/٤٩٢).

(٢) رواه أحمد (٤/١١٨، ١٩٠)، والترمذي (٣٣٧٢) (٩/٩٤) وابن ماجه (٣٧٩٣) (٢/١٢٤٦) وصححه الألباني (٣٠٦٠) (٢/٣١٧) صحيح سنن ابن ماجه ورواه ابن حبان في صحيحه (٨١٤) وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/٤٩٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد في الزهد ص ١٣٦، وأبو نعيم في الحلية (١/٢١٩).

(٤) راجع التخريج السابق.

ترجمان المقاصد، وذكْر الله عبادتهما وموضع عبوديتهما؛ ذلك أن: «في كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال؛ قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب، وهو عمارتها وأساسها، وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً؛ ازداد المذكور محبة إلىٰ لقائه واشتياقاً. وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسيْ في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء»(١).

هذا.. وللذكر أنواع، يتقلب الذاكرون في رياضها، ويرتعون في دوحاتها، فتتنفس نفوسهم عبق الجنة بها، وتستروح أرواحهم أريج التنعم فيها.

ومن ذلك ما يلي:

أولاً: تلاوة القرآن، وهو أفضل الذكر، وقد سبق تفصيل الكلام عليه في السبب الأول من أسباب المحبة.

ثانياً: التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار.

فالتسبيح من السبح، وهو في أصل اللغة: المَرُّ السريع، يقال: سَبَح يَسْبح سباحة، وتكون السباحة في الماء أو في الهواء، كما في قوله: ﴿وكلٌّ في فلك يسبحون﴾ [سورة يس: ٤٠] أما التسبيح المراد في العبادة، فالمقصود به تنزيه الله تعالىٰ، وأصله: المَرُّ السريع في عبادة الله عز وجل(٢) فكان المسبِّح بقوله وترديده (سبحان الله) يخوض سريعاً في

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٤٢٣، ٤٢٤).

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن أحمد المعروف بالراغب الأصفهاني مادة (سبح) ص٢٢١. دار المعرفة – بيروت.

عبادة الله كالسابح الماهر.

أو أن التسبيح من (سَبَح) بمعنىٰ بَعُد وعلا، والمراد البُعد الاعتباري الرتبي، الذي بمعنىٰ الرفعة. فقول (سبحان الله) يفيد معنىٰ علو الله ونزاهة مقامه جل وعلا عن النقائص(١).

والتسبيح يكون بالقول ويكون بالعمل، ويكون بهما معاً، ولهذا سُميت الصلاة تسبيحاً كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلىٰ يوم يبعثون ﴾ [سورة: الصافات: ١٤٤]. قال ابن جرير الطبري: يعني من المصلين لله(٢).

وأما التحميد، فمن الحمد وهو الثناء بالفضل، وهو أخص من المدح وأعم من الشكر،فإن المدح يقال فيما يكون في الشيء من صفات اختيارية أوتسخيرية، فيمدح الإنسان مثلاً بجمال الخَلْق وجمال الخُلُق. أما الحمد فيكون للصفات التي فيها القصد والاختيار. والشكر لا يقال إلا في مقابل نعمة وجميل أما الحمد فهو الثناء لفضل المحمود(٣) وكثيراً ما يتعلق التسبيح بالحمد في القرآن والسنة، وذلك – والله أعلم – لأن التسبيح نفي للنقائص، والتحميد إثبات للفضائل، ويمكن أن نلمح مايؤيد ذلك في قول الله تعالىٰ حكاية عن الملائكة: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ [سورة: البقرة: ٣٠].

فقد ذكروا أنهم يعمرون الكون بالتسبيح مقترنا بالحمد عن اعتقاد وعمل (ونقدس لك).

---

(١) تفسير (التحرير والتنوير) للشيخ محمد الطاهر بن عاشور (٢/ ٤٠٥) الدار التونسية للنشر.

(٢) تفسير جامع البيان عن تاويل القرآن، للإمام ابي جعفر محمد بن جرير الطري (٢٣/ ٩٩) مكتبة الحلبي القاهرة.

(٣) المفردات للراغب مادة (حمد) ص١٣١.

- وأما التهليل، فهو قول (لا إله إلا الله) ويقال له ايضاً: الإهلال والتهلّل(١). وكلمة التوحيد هي افضل كلمة نطق بها الخلق كما قال ﷺ **(خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)**(٢).

- والتكبير: هو قول: (الله اكبر) وفيه إثبات صفة الكبرياء المطلق لله تعالى، فمن أسمائه سبحانه: (الكبير)، و(المتكبر).

والحاصل من ذلك ان من ذكر الله اكثر، احبه الله اكثر، لمحبته لله، وحب الله اكبر. **﴿ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون﴾** [سورة العنكبوت: ٤٥] ولا شك ان كل ما يجلب محبة الرب جل وعلا، فإنه يجلب للعبد المحبة في الملأ الاعلى. فالملائكة يحبون من احبه الله، تقرباً إلى الله، واستجابة لامر الله. قال رسول الله ﷺ: **(إذا أحب الله العبد، نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحببه فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)**(٣).

ومحبة الملائكة للذاكرين تجعلهم يطوفون في الآفاق يلتمسون مجالسهم ليحفوها باجنحتهم.

قال رسول الله ﷺ: **(لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل، إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده)**(٤).

---

(١) المفردات للراغب مادة (هلل) ص٥٤٤.

(٢) رواه الترمذي ح(٥٣٧٩) (١٠/٢١٩) ومالك في الموطا (٥٠٠، ٩٥٥) وقال الالباني في السلسلة الصحيحة: الحديث ثابت بمجموع الشواهد. ح (١٥٠٣) (٤/٧، ٨).

(٣) اخرجه البخاري (٣٢٠٩) فتح الباري (٦ / ٣٥٠).

(٤) رواه مسلم (٢٧٠٠) (٤/٢٠٧٤).

فهؤلاء الكرام من الملائكة، هذه وظيفتهم، وتلك بغيتهم... تتبع مجالس الذاكرين والنزول إليها، والقعود فيها. وهذا معنىٰ عظيم جداً لمن استشعره، وأيقن بالأخبار التي جاءت به. قال رسول الله ﷺ: (إن لله تبارك وتعالىٰ ملائكة سيارة فُضلاً، يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر، قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم، حتىٰ يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا، عرجوا وصعدوا إلىٰ السماء، فيسألهم الله عز وجل، وهو أعلم بهم: من أين جئتم، فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض، يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك. قال: وماذا يسألوني؟ قالوا. يسألونك جنتك. قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا لا، أي رب. قال: فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك. قال: وم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك يارب. قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا. قال فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك. قال: : فيقول: قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا. فيقولون: ربِّ ! فيهم فلان، عبد خطَّاء إنما مرَّ فجلس معهم، قال فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم)(١).

ثالثاً: الصلاة علىٰ النبي ﷺ:

اقترنت الصلاة علىٰ النبي ﷺ بالذكر كثيراً - وهذا من تشريف الله تعالىٰ لنبيه - كما جاء في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ [سورة الشرح: ٤]. قال مجاهد: «لا أُذكر إلا ذُكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»(٢). وهذه الصلاة من الأذكار المترجمة عن محبة المسلم لنبيه ﷺ واستعداده لطاعته واتباعه.

كما أنها امتثال لأمر الله تعالىٰ بالصلاة والسلام عليه في ملأ الأرض،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٩) (٤/٢٠٦٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٤٥٢).

كما هو مذكور بالصلاة والتسليم في ملأ السماء، قال تعالىٰ: ﴿إن الله وملائكته يصلون علىٰ النبي، يا أيها الذين آمنوا، صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [سورة الأحزاب: ٥٦].

إنه لأمر عظيم هذا الذي تتحدث به الآية الكريمة، ولو لا أن الله أنزل بذلك وحيه، لما تصور الإنسان أن لبشر في الأرض تلك المنزلة في السماء. فالله وملائكته يصلون علىٰ هذا المبعوث العظيم عليه الصلاة والسلام، فأي تكريم وأي تشريف وأي توقير هذا الذي حظي به خير البشرية محمد ﷺ.

إن المسلم وهو يضم إلىٰ أوراده وأذكاره الصلاة علىٰ النبي ﷺ ينبغي له أن يستشعر المعنىٰ الكبير لهذه الآية. يقول ابن كثير - رحمه الله - في تفسيرها - «المقصود من الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلىٰ، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه»(١).

فصلاة الله علىٰ نبيه ﷺ، تعني ثناؤه سبحانه عليه عند الملائكة ورحمته له. أما صلاة الملائكة عليه، فمعناها الدعاء له بالبركة ووالمغفرة(٢).

فإذا كان هذا شأن نبينا في الملأ الأعلىٰ فلا بد أن الله تعالىٰ يحب له في عالم الأرض تكريماً وتشريفاً يليقان به أيضاً. قال ابن كثير: «أمر الله تعالىٰ أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٥٠٧).

(٢) أورد البخاري هذا المعنىٰ عن بعض السلف انظر صحيح البخاري مع الفتح (٨/٣٩٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٥٠٧).

وتذليل اللسان بالإكثار من الصلاة والسلام علىٰ النبي محمد ﷺ مما يروض حس المسلم علىٰ احترام صاحب الرسالة وتوقيره وتبجيله، وهذا يدعو النفس بالتالي إلىٰ ترجمة ذلك التبجيل والتوقير إلىٰ أعمال وافعال تتمثل في حسن اتباعه، وإجادة التاسي به. وهذا - بلا شك - من أصدق العلامات علىٰ محبة الرسول ﷺ؛ قال سبحانه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ [سورة آل عمران: ٣١].

والصلاة مستحبة مطلقاً علىٰ النبي ﷺ، والمؤمن مثاب عليها ثواباً مضاعفاً، كما قال ﷺ: (من صلىٰ عليّ صلاة واحدة، صلىٰ الله عليه عشر صلوات، وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات)(١). فكلما أكثرالمسلم من تلك الصلاة، كلما ازداد قرباً، كما أخبر بذلك عليه الصلاة والسلام في قوله: (أولىٰ الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة)(٢).

فالصلاة علىٰ النبي ﷺ إذن دين وقربىٰ، ولهذا يتحسر المفرطون فيها وفي الذكر عندما تعرض الأعمال علىٰ الله يوم القيامة قال ﷺ: (لا يقعد قوم مقعداً لا يذكرون الله عز وجل، ويصلون علىٰ النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة)(٣).

ويستحب الإكثار من الصلاة والسلام عليه في يوم الجمعة وليلتها؛ فعن أوس بن أوس القرني قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أفضل أيامكم، يوم الجمعه، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/٣٠٦) وابوداود (١٥٣٠) (٢/١٨٤) والترمذي (٤٨٥) (٢/١٢٢)، والنسائي (٣/٥٠) واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي (٤٨٤) (٢/١٢٢) وقال حسن غريب.

(٣) سبق تخريجه ص (٥٣).

فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ). قالوا يا رسول الله.. وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ يعني: وقد بليت؟ قال: (إن الله حرَّم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) (١).

خامساً: الأذكارالموظفة.

وهي الأوراد المخصوصة للأحوال مقسمة علي اليوم والليلة، وأهل المحافظة عليها هم أولي الناس دخولاً تحت قوله تعالي: ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة و أجراً عظيماً﴾ [سورة الاحزاب: ٣٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما. «المراد: يذكرون الله في أدبار الصلوات وغدواً وعشياً، وفي المضاجع، وكلما استيقظ من نومه، وكلما غدا أو راح من منزله، ذكرالله تعالىٰ» (٢).

وقال مجاهد: «لا يكون من الذاكرين الله تعالىٰ كثيراً والذاكرات، حتىٰ يذكر الله تعالىٰ قائماً وقاعداً ومضطجعاً» (٣).

وسئل الشيخ الإمام أبوعمرو بن الصلاح - رحمه الله - عن القدر الذي يصير به من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، فقال: «إذا واظب علىٰ الأذكار المأثورة المثبتة صباحاً ومساءً، وفي الأوقات والأحوال المختلفة في ليل العبد ونهاره، وهي مبينة في كتاب عمل اليوم والليلة كان من الذاكرين الله تبارك وتعالى كثيراً» (٤).

---

(١) رواه النسائي (١٣٧٤) وصححه النووي في الأذكار ص ٢٠٣ تحقيق علي الشربجي، وهاشم النوري، ورواه ابن ماجه (١٠٨٥) (١/ ٣٤٥)، وابو داود (١٠٤٧) (١/ ٦٣٥) وصححه الالباني في صحيح سنن ابي داود (٩٢٥) (١/ ١٩٦).

(٢)، (٣) الأذكار للإمام النووي - تحقيق علىٰ الشوربجي وقاسم النوري ص٣٥ مؤسسة الرسالة.

(٤) فتاوىٰ ومسائل ابن الصلاح تحقيق الدكتور عبد المعطي امين قلعجي (١/ ١٥٠) دار المعرفة - بيروت.

والمقام هنا لا يتسع لذكر هذه الأوراد والأذكار الموظفة في اليوم والليلة ولكن هناك كتباً أفردت لجمعها، ونحيلك علىٰ بعضها:

١- الأذكار للنووي المسمى حلية الأبرار وشعار الأخيار.

٢- عمل اليوم والليلة لابن السني.

٣- الكلم الطيب لابن تيمية.

٤- الوابل الصيِّب من الكلم الطيب - لابن القيم.

٥- تحفة الذاكرين للشوكاني.

٦- التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي.

٧- النصيحة في الأذكار والأدعية الصحيحة. محمد أحمد إسماعيل.

وليحرص المسلم على اقتناء النسخ المحققة من هذه الكتب، حتى يتبين درجة الحديث وليكون على هدىً في عبادته ودعائه.

* * *

السبب الرابع

إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

[إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى].

وهذه العبارة القيمة من (ابن القيم)، لن نجد من يشرحها أحسن الشرح من ابن القيم نفسه، ففي كلامه على منزلة (الإيثار) من كتابه: «مدارج السالكين، في منازل إياك نعبد وإياك نستعين» يقول رحمه الله شارحاً الدرجة الثانية من درجات منزلة الإيثار وهي: [إيثار رضى الله على رضى غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن، وضعف عنه الطول والبدن]:

«إيثار رضى الله عز وجل على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء، وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبينا ﷺ وعليهم.

فإنه قاوم العالم كله، وتجرد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى، وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم، بل كان همه وعزمه وسعيه كله مقصوراً على إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته وجهاد أعدائه، حتى ظهر دين الله على كل دين وقامت حجته على العالمين، وتمت نعمته على المؤمنين، فبلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه، فلم ينل أحد من درجة هذا الإيثار ما نال. صلوات الله وسلامه عليه»[1].

ويبرز من خلال كلمة ابن القيم هذه أن إيثار محاب الله على محاب غيره تتجلى آثاره في أمور ثلاثة من خلالها يتسنم العبد إلى محاب الله وإن صعب المرتقى، وهي: قهر هوى النفس، ومخالفة هوى الناس، ومجاهدة

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٩، ٣٠٠).

الشيطان وأوليائه.

أولاً: قهر هوىٰ النفس:

فلا يستطيع التسنم والصعود إلىٰ محاب الله، إلا من تروض علىٰ قهر الهوىٰ الممنوع. قال محمد بن عبد القوي المرداوي في منظومة الآداب:

وفي قمع أهــواء النفــوس اعـتزازهـا

وفي نيلها ما تشتهي ذلٌّ سرمدي(١)

والهوىٰ المذموم هو الميل إلىٰ كل باطل ومحرم، وإليه ينصرف (الهوىٰ) عند الإطلاق، وإنما سُمي بذلك لأنه يهوىٰ بصاحبه في الدنيا إلىٰ كل داهية، وفي الآخرة إلىٰ الهاوية(٢).

قال الشيخ محمد السفاريني في شرح منظومة الآداب: «لا شك أن في مخالفة النفوس لهواها اعتزازها وقوتها ومنعتها من الشيطان وجنوده وعدم ذلها، فلما قمع هوىٰ نفسه بمقمعة المتابعة، وضربها بسياط الاقتداء، وصرفها بزمام التقوىٰ حصل لها العز والامتناع والقوة والارتفاع بحسن الاتباع ومخالفة الابتداع»(٣).

وقد يهوىٰ الإنسان شيئاً مباحاً، فلا ضير في ذلك إذا كان لا يشغل عن الطاعات الواجبة، ولكن - وكما قال ابن القيم - «لما كان الغالب ممن يطيع هواه وشهوته وغضبه أن لا يقف فيه علىٰ حد المنتفع به؛ أُطلق ذم الهوىٰ والشهوة والغضب لعموم الضرر، لأنه يندر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، كما أنه يندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه»، بل لا بد من غلبة أحد الأخلاط والكيفيات عليه، فحرص الناصح علىٰ تعديل

---

(١) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ٢/٤٥٥).

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ص٥٤٨ مادة (هوى).

(٣) غذاء الألباب (٢/٤٥٥).

قوة الشهو ة والغضب من كل وجه كحرص الطبيب علىٰ تعديل المزاج من كل وجه، وهذا أمر يتعذر وجوده إلا في حق أفراد من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالىٰ الهوىٰ في كتابه إلا ذمه وكذلك في السنة، لم يجئ إلا مذموماً إلا ما جاء منه مقيداً... وقد قيل: الهوىٰ كمين لايؤمن، ومطلقه يدعو اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة، ويحث علىٰ نيل الشهوات عاجلاً،وإن كانت سبباً لاعظم الآلام، وربما يكون عاجلاً أيضاً. فالهوىٰ والنفس والشيطان والدنيا يدعون إلىٰ ما فيه البوار. ويعمين عين البصيرة عن النظر في العواقب وما يغضب ويرضي الجبار. والدين والمروءة والروح ينهين عن لذة تُعقِبُ المأ، وشهوة تورث ندماً. ولما ابتلي المكلف وامتحن بالهوىٰ من بين سائر البهائم وكان كل وقت تحدث عليه الحوادث، جعل فيه حاكمان؛ حاكم العقل، وحاكم الدين»(١).

أما لماذا كانت مخالفة الهوىٰ موجبة لمحبة الله، فذلك لأن الإنسان عند غلبات الهوىٰ يكون بين اختيار واختيار؛ بين أن يختار ما يرضي الله تعالىٰ من القول والعمل أو ما يرضي النفس ويجيب غرورها ويشبع نهمها.

لهذا كانت مخالفة الهوىٰ والصبر علىٰ ذلك من الجهاد، بل من أرفع درجات الجهاد. قيل للحسن البصري - رحمه الله - يا أبا سعيد: أي الجهاد أفضل؟ «قال: جهادك هواك»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «يحتاج المسلم إلىٰ أن يخاف الله، وينهي النفس عن الهوىٰ، ونفس الهوىٰ والشهوة لا يعاقب

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين للإمام شمس الدين بن قيم الجوزي (٤٦٩) دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) شرح منظومة الآداب (٢/ ٤٥٨).

عليه، بل علىٰ اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوىٰ وهو ينهاها، كان نهيه عبادة لله، وعملاً صالحاً.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: (المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل)[١] فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها. وهو إلىٰ جهاد نفسه أحوج، فإن هذا فرض عين، وذاك فرض كفاية. والصبر في هذا من أفضل الأعمال، فإن الجهاد حقيقة ذلك الجهاد، فمن صبر عليه صبر علىٰ ذلك الجهاد»[٢].

قال الشاعر:

إذا المرء أعطىٰ نفسه كلما اشتهت ... ولم ينهها تاقت إلىٰ كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار للذي ... دعته إليه من حلاوة عاطل[٣]

هذا في العاجل، أما في الآجل، فالفوز العظيم لمن نهاها عن الهوىٰ، والخسران المبين لمن اتبعها هواها. قال تعالىٰ: ﴿فأما من طغىٰ وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوىٰ، وأما من خاف مقام ربه ونهىٰ النفس عن الهوىٰ فإن الجنة هي المأوىٰ﴾ [سورة النازعات: ٣٨، ٤١].

قال الألوسي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: ﴿ونهىٰ النفس عن الهوىٰ﴾ «أي: زجرها وكفها عن الهوىٰ المردي، وهو الميل إلىٰ الشهوات. وضبطها بالصبر والتوطين علىٰ إيثار الخيرات، ولم يعتد بمتاع الدنيا وزهرتها، ولم يغتر بزخارفها وزينتها علماً بوخامة عاقبتها. وعن ابن عباس ومقاتل: أنه الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب بين يدي ربه

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢١) (٥/٣٤٥) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٠، ٢٢) واللفظ له.
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/٦٣٥، ٦٣٦).
(٣) غذاء الألباب (٢/٤٥٩).

سبحانه فيخاف فيتركها... قال بعض الحكماء: إذا أردت الصواب فانظر إلىٰ هواك فخالفه. وقال الفضيل: أفضل الأعمال مخالفة الهوىٰ. وقال ابو عمران الميرتلي:

فخالف هواها واعصها، فمن يطع
هـوىٰ نفـسه تنزع به شـر منزع
ومـن يطـع النفـس اللجـوجة ترده
وترم به في مصرع أي مصـرع»(١)

وأما عن السبيل العملي لمجاهدة الهوىٰ فكعادته يدلنا ابن الجوزي – رحمه الله – علىٰ الطريق الأمثل إلىٰ ذلك فيذكر ستة أشياء تعين علىٰ مجاهدة الهوىٰ:

أحـدها: التفكر في أن الإنسان لم يخلق للهوىٰ العاجل، وإنما للنظر في العواقب والعمل للآجل، فلو كان نيل المشتهىٰ في كل حال فضيلة لما بُخس حظ الآدمي الشريف منه وزيد في حظ البهائم، وفي توفير حظ الآدمي من العقل وتفضيله به، مع بخس حظه من الهوىٰ، ما يكفي في فضل هذا وذم ذلك.

الثـاني: أن يفكر في عواقب الهوىٰ، فكم قد أفات من فضيله، وكم قد أوقع في رذيلة، وكم من مطعم قد أوقع في مرض، وكم من زلة أوجبت انكسار جاهٍ وقبح ذكرٍ مع إثم، غير أن صاحب الهوىٰ لايرىٰ إلا الهوىٰ!

الثـالث: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه، ثم يتصور الأذىٰ الحاصل عقب اللذة، فإنه يراه يُربي علىٰ الهوىٰ أضعافاً.

(١) تفسير الألوسي المسمىٰ: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) تأليف السيد محمود الألوسي البغدادي. (٣٠/٤٦) دار الفكر – بيروت.

الرابــع: أن يتصور ذلك في حق غيره، ثم يتلمح عاقبته بفكره، فإنه سيرى ما يعلم به عيبه إذا وقف في ذلك المقام.

الخــامس: أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات، فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشيء وإنما عين الهوى عمياء.

قال أبو الطيب المتنبي

لو فكـر العاشـق في منتهى   حسن الذي يسبيه لم يسبه(١)

والسـادس: أن يتدبر عزَّ الغلبة وذل القهر فإنه ما من أحد غلب هواه إلا أحس بقوة وعز، وما من أحد غلبه هواه إلا وجد في نفسه ذل القهر.

والسـابع: أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى، من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعرض والأجر في الآخرة ثم يعكس، فيتفكر لو وافق هواه في حصول عكس ذلك إلى الأبد، ولنفرض لهاتين الحالتين حالتي آدم ويوسف عليهما السلام، وفي لذة هذا وهم هذا.

ويا أيها الأخ : احضر لي قلبك عند هذه الكلمات، وقل لي، بالله عليك، أين لذة آدم التي قضاها من هَمَّة يوسف التي ما أمضاها؟!

من كان يكون يوسف لو نال تلك اللذه؟ فلما تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعة، صار من قد عرفت»(٢).

ثانياً: مخالفة هوى الناس:

وذلك بعدم الانحراف معهم أو الانجراف وراء رغائبهم فيما لا يوافق

---

(١) أي: لو فكر من يريد الظفر بامرأة لا تحل له، وما الذي يختبئ وراء هذا الحسن وما الذي ينتهي إليه هذا الحسن لم يطمع بالظفر بها.

(٢) انظر كتاب (ذم الهوى) للإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ص ١٩، ٢٠ باختصار وتصرف – تحقيق: أحمد عبد السلام عطا. دار الكتب العلمية – بيروت.

الحق، بل يؤثر المؤمن ما يحبه الله على ما يحبه الناس سواء كان ذلك لنفسه أو للناس. وهذا يحتم عليه أن يكون داعياً إلى الحق والخير الذي يعلمه آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، فالقيام بذلك مع نشر العلم الصحيح بعد تحصيله لهو من أكبرمحاب الله؛ إذ الداعي دال على الطريق إلى الله، متحمل للجهد والمشقة والاذى من أجل نفع الناس وإيصال الخير إليهم. والأمة لا بد أن يكون فيها من يتصدى لتعريف الناس بالخير ليمتثلوه، وتعريفهم بالشر ليجتنبوه، في غير ما هيبة أو رهبة، أو مطمع أورغبة. وأمام السائر في هذا الدرب معالم من الهدى؛ فالله تعالى قد بيَّن في كتابه سبيل المؤمنين وامر باتباعها، فقال سبحانه: ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى، ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ [النساء: ١١٥].

وكذلك فصَّل القرآن طرائق وسبل المجرمين وحذر منها. قال تعالى: ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ [الانعام: ٥٥]. والداعي إلى الله هو الموكول إليه تبيان السبيلين على حسب ماتعلم من الشريعة، مخالفاً في ذلك أهواء الناس...

فهذا ميراث النبوة ووظيفة الرسل، التي يقوم بهاعنهم الدعاة إلى الله بعد ختم الرسالات، وهم يتحملون في ذلك نحواً مما تحملته الرسل، وينبغي أن يصبروا على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك، وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ﴾ [القصص: ٨٧].

اي: «لا تتاثر لمخالفتهم لك، وصدهم الناس عن طريقك، ولاتلوي على ذلك ولاتباله، فإن الله معك، معلٍ كلمتك ومؤيد دينك، ومظهر

ما أرسلك به على سائر الأديان»(١).

والسبيلان اللذان يتعين على الدعاة تبيينهما للناس - أعني سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين - هما في الأصل مبينان في كتاب الله، وما على الدعاة إلا أن يتعرفوهما ثم يعرِّفوا بهما؛ قال ابن القيم - رحمه الله -: «بيّن الله تعالى في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء مفصلة، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام. فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبل، كي يستبين الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة»(٢).

وكما أن هوى الناس مفسد لأحوال الناس إذا سايروه، فإن هذا الهوى مفسد لذات النفس إذا تابعت فيه، فالناس لن يُسألوا عن اتباعك لأهوائهم، ولكنك أنت ستسأل عن ذلك، ولن ينفعك عند ذلك ولد أو والد ، أو قريب أو صاحب سرت في هواه، وترسمت خطاه، وأضعت دينك بدنياه.

كتب رجل إلى داود الطائي يطلب منه الموعظة فكتب إليه:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٩).

(٢) الفوائد لابن القيم ص (١٠٨).

«أما بعد، فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك، كما رضي أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم. والسلام»(١).

ثالثاً: مدافعة الشيطان ومجاهدة أوليائه:

فمحبة الله والانقياد للشيطان ضدان لايجتمعان؛ فإن ذلك العدو اللعين لايزال يتقوت من قلب الإنسان حتىٰ يبليه،ولا يزال يتربص بالإيمان فيه حتىٰ لا يبقيه، فكيف يفلح عبدٌ عرَض قلبه لغزو الشيطان وجنوده، من غير دفاع أو ردع؟ وكيف يبقىٰ هذا القلب عامراً بمحبة الله، والشيطان لايزال يتعقب محاب الله فيه فيقتلعها واحدة إثر أخرىٰ، بعد أن يستدرجها بخطواته ويرميها بسهام مكائده؟

إنها العداوة المطلقه؛ قال تعالىٰ: ﴿**إن الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ [سورة فاطر: ٦] إن الشيطان والإنسان والإيمان في نبأ عظيم، جدير بالتأمل والتفكر.

وقد ضرب بعض العلماء لذلك مثلاً فقال: «مثل الإيمان كمثل بلدة لها خمس حصون الأول من ذهب والثاني من فضة والثالث من حديد والرابع من آجر(٢) والخامس من لبِن فما دام أهل الحصن متعاهدين حصن اللبِن؛ لا يطمع العدو في الثاني، فإذا أهملوا ذلك، طمعوا في الحصن الثاني ثم الثالث، حتىٰ تخرب الحصون كلها، فكذلك الإيمان في خمس حصون: اليقين،ثم الإخلاص ثم أداء الفرائض ثم السنن ثم حفظ الآداب، فما دام يحفظ الآداب ويتعاهدها، فالشيطان لا يطمع فيه، وإذا ترك الآداب طمع الشيطان في السنن، ثم في الفرائض، ثم في الإخلاص ثم في اليقين»(٣).

---

(١) ذم الهوىٰ ـ لابن الجوزي ص٤٩٩.

(٢) الآجر: هو الحجر الذي يبني به، وهو فارسي معرب. انظر مختار الصحاح مادة (أ ج ر).

(٣) غذاء الألباب، شرح منظومة الآداب للشيخ محمد السفاريني الحنبلي (١/ ٣٧) مؤسسة قرطبة.

وأما عن مجاهدة أولياء الشيطان فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ [النساء: ٧٦] .

إن من علامات حب الله، أن يحب العبد شريعة الله، فيلزم نفسه بها ويدعو الناس إليها، ويجاهد أعداءها في سبيل الله، ولايخاف في ذلك لومة لائم، فالمجاهد المسلم الذي يبذل أغلىٰ مايملك - وهو روحه - من أجل إدخال الناس في دين الله؛ استحق عمله هذا أن يكون ذروة سنام الإسلام، فإن أعرف المعروفات: الدين الحق والإيمان بالتوحيد والنبوة، وأنكر المنكرات: الكفر بالله؛ فكان الجهاد في الدين محملاً لأعظم المضار، لغرض إيصال الغير إلىٰ أعظم المنافع، وتخليصه من المضار، فوجب أن يكون الجهاد من أعظم العبادات وأكثرها جلباً لمحبة الله.

وقد نص القرآن العظيم، علىٰ محبة الله تعالىٰ للمجاهدين من أجل رفع كلمته وإعلاء دينه؛ قال تعالىٰ: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا، من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة علىٰ المؤمنين، أعزة علىٰ الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن رجب الحنبلي - رحمه الله -: «ذكر أوصاف الذين يحبهم الله ويحبونه فقال: أذلة علىٰ المؤمنين: يعني أنهم يعاملون المؤمنين بالذلة وخفض الجناح ﴿ **أعزة علىٰ الكافرين** ﴾ يعني أنهم يعاملون الكافرين بالعزة والشدة عليهم والإغلاظ لهم، فلما أحبوا الله أحبوا أولياءه الذين يحبونه، فعاملوهم بالمحبة والرأفة والرحمة وأبغضوا أعداءه الذين يعادونه، فعاملوهم بالشدة والغلظة، كما قال تعالىٰ: ﴿ **أشداء علىٰ الكفار، رحماء بينهم** ﴾ وقال ﴿ **يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** ﴾ فإن من تمام المحبة مجاهدة أعداء المحبوب، وأيضاً، فالجهاد في سبيل الله دعاء

للمعرضين عن الله إلىٰ الرجوع إليه، بالسيف والسنان بعد دعائهم إليه بالحجة والبرهان. فالمحب لله يحب اجتلاب الخلق كلهم إلىٰ بابه، فمن لم يجب الدعوة باللين والرفق، احتاج إلىٰ الدعوة بالشدة والعنف (عجب ربك من قوم يقادون إلىٰ الجنة بالسلاسل)(١). ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ لا هَمَّ للمحب غير ما يرضي حبيبه، رضي من رضي، وسخط من سخط»(٢).

والجهاد الشرعي له مدلول أوسع من مجرد قتال العدو؛ فهو بذل الجهد لدفع كل ما يبعد النفس والناس عن الله. ولهذا اقترن في القرآن بالهداية؛ هداية النفس وهداية الناس. قال تعالي: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩]. قال ابن القيم في تفسيرها:

«علَّق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوىٰ وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلىٰ جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدىٰ بحسب ما عطل من الجهاد»(٣).

ولكن جهاد النفس والهوىٰ والشيطان والدنيا - وإن كان أفرض الجهاد - فإن ذلك لم يكن كذلك إلا لأنه مدخل ضروري لأفضل الجهاد وهو الجهاد بالنفس والمال. فالعبد الصادق بعد أن يجاهد نفسه في الله، يجاهد بها لله ويبذلها رخيصة بعد أن هذبها ورباها ونقاها من الانقياد لغلبات الهوىٰ ونزغات الشياطين، ولوثات الإخلاد إلىٰ الأرض.

ولهذا لا يمكن أن يكون المجاهد الصادق إلا محباً لله ومحبوباً من الله.

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه (٣٠١٠) (٦/ ١٦٨) وأحمد (٢/ ٣٠) وأبو داود (٢٦٧٧) وابن حبان (١٣٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٣٩).

(٣) الفوائد لابن القيم ص٥٩.

ولا عجب، فالجهاد ذروة سنام الإسلام، كما اخبر النبي ﷺ.

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: «وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد، والجهاد دليل المحبة الكاملة. قال تعالىٰ: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتىٰ يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [سورة التوبة: ٢٤].

وقال تعالىٰ في صفة المحبين المحبوبين: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة علىٰ المؤمنين أعزة علىٰ الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ [سورة المائدة: ٥٤]. فوصف المحبوبين المحبين بانهم اذلة علىٰ المؤمنين اعزة علىٰ الكافرين وانهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. فإن المحبة مستلزمة للجهاد، لان المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يوالي ويعادي من يعاديه ويرضىٰ لرضاه، ويغضب لغضبه، ويامر بما يامر به، وينهىٰ عما ينهىٰ عنه، فهو موافق له في ذلك وهؤلاء هم الذين يرضىٰ الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم إذ هم إنما يرضون لرضاه ويغضبون لمايغضب له»[١].

وقد ربط ابن تيمية – رحمه الله – في موضع آخر بين ترك الجهاد وبين قلة المحبة، لان تارك الجهاد لم يؤثرمحاب الله علىٰ محابه، ولم يتسنم إلىٰ محاب الله وإن صعب المرتقىٰ. قال رحمه الله: «والجهاد هو بذل الوسع والقدرة في حصول محبوب الحق، ودفع مايكرهه الحق، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد، كان دليلاً علي ضعف محبة الله ورسوله في قلبه. ومعلوم ان المحبوبات لا تُنال غالباً إلا باحتمال المكروهات سواء كانت محبة

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٠/٥٧، ٥٨).

صالحة أو فاسدة، فالمحبون للمال والرئاسة والصور، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرىٰ ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في حصول محبوبهم، دل ذلك علىٰ ضعف محبتهم لله، إذا كان مايسلكه أولئك هو الطريق الذي يشير به العقل»[١].

* * *

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٩٢، ١٩٣).

السبب الخامس

مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أحبه لا محالة.

[مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أحبه لامحالة].

يتحدث ابن القيم - رحمه الله - هنا عن المعرفة، وهي مقام سامٍ من مقامات المؤمنين، ومنزلة من منازل السائرين إلىٰ دار الفائزين.

والمعرفة والعرفان - كما قال الراغب - هي في اللغة «إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهي أخص من العلم، ويضادها: الإنكار. يقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله متعدياً إلىٰ مفعول واحد، لما كان معرفة البشر لله هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته. ويقال: الله يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم المتوصل إليه بتفكر»(١).

فهناك فرق بين العلم والمعرفة لفظاً ومعنىٰ. والفرق الجوهري بينهما، أن المعرفة هي علم مقتضٍ للعمل، فهي متضمنه للعلم والعمل جميعاً. وهي تتعلق أكثر بعمل القلب.

وقد بوب البخاري - رحمه الله - علىٰ قول النبي ﷺ (**أنا أعلمكم بالله**) بقوله: «المعرفة فعل القلب»(٢) لقوله تعالىٰ ﴿**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾ [البقرة: ٢٢٥].

والحديث المشار إليه، له رواية بلفظ (**أنا أعرفكم بالله**)(٣).

قال ابن حجر - رحمه الله - «قوله ﷺ (**أنا أعلمكم بالله**) ظاهر في أن العلم بالله درجات، وأن بعض الناس فيه أفضل من بعض، وأن النبي ﷺ

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني - مادة (عرف) ص٣٣١.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب الإيمان. باب (١٣).

(٣) قال ابن حجر: هو من رواية الأصيلي (الفتح ١/٨٩).

منه في أعلىٰ الدرجات، والعلم بالله يتناول ما بصفاته وما بأحكامه، وما يتعلق بذلك، فهذا هو الإيمان حقاً»(١).

قال ابن القيم - رحمه الله - «لا يوصف بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله وبالطريق الموصل إلىٰ الله، وبآفاتها وقواطعها، وله حال من الله تشهد له بالمعرفة. فالعارف هو من عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق الله في معاملته، ثم أخلص له في قصده ونيته، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثم صبر علىٰ أحكام الله في نعمه وبلياته، ثم دعا إلىٰ الله علىٰ بصيرة بدينه وآياته، ثم جرد للدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله ولم يشبها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم، ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته، فهذا الذي يستحق اسم العارف علىٰ الحقيقة، إذا سمي به غيره علىٰ الدعوىٰ والاستعارة»(٢).

ولا يستقر للعبد قدم في المعرفة و الإيمان حتىٰ يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرج به عن الجهل بربه، فالإيمان بالصفات وتعُرفها أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وأتلف ثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان. ومَنْ أوّلَ الصفات فكأنما يتهم البيان النبوي للرسالة بالتقصير، إذا لا يمكن أن يترك النبي ﷺ أهم أبواب الإيمان بحاجة إلىٰ إيضاح وإفصاح من غيره لإظهار المراد والمقصود الذي لم تبينه العبارات في النصوص. فالرسول ﷺ الذي علمً أمته كل شيء، حتىٰ آداب دخول الخلاء، لم يكن ليترك باب معرفة الرب من دون بيان.

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم

(١) فتح الباري: (١/ ٨٩).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٣٧، ٣٣٨) بتصرف يسير.

فيه منفعة في الدين – وإن دقت – أن يترك تعليمهم مايقولونه بألسنتهم، ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية، وزبدة الرسالة الإلهية»(١).

نعم، هذا التعريف بالله هو خلاصة الدعوة وزبدة الرسالة، بل هو أول وظائف الرسالات كلها؛ فالرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – إنما بعثت بثلاث مهام عظام ووظائف كبار تدور كلها حول التوحيد:

الوظيفة الأولى: الدعوة إلىٰ عبادة الله وحده لاشريك له، وهذا لا يتم إلا بعد تعريف العباد بالمعبود سبحانه، وتفرده بصفات الجلال، وأسماء الكمال.

والوظيفة الثانية: بيان الطريق الموصلة إليه سبحانه، وكيفية الاستقامة علىٰ هذه الطريق، وهذا يكون ببيان التكاليف التي تجيء بها الشرائع من أمر أو نهي، ووعد ووعيد، ليخلص العبادة قصداً وطلباً له سبحانه.

والوظيفة الثالثة: بيان حال المكلفين بعد قطع الطريق إلىٰ الآخرة، حيث يصلون بعدها إما إلىٰ الجنة والنعيم إن كانوا من أهل التوحيد، وإما إلىٰ النار والجحيم، إن كانوا من أهل الشرك والكفر. فالرسل جاءت ببيان هذا المآل، وما تضمنه اليوم الآخر من جنة أو نار، وحساب وحوض وميزان وصراط ونحو ذلك(٢).

وهذه الوظائف الثلاثة التي جاءت من أجلها الرسل، وجدت من أعداء

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١/٧).

(٢) راجع شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، بتحقيق جماعة من العلماء، وتخريج الشيخ الالباني ص٨٩، ٩٠. المكتب الإسلامي. بيروت وانظر مدارج السالكين (٣/٣٤٨).

الرسل - من شياطين الإنس والجن - ثلاث طوائف، قعدت كل طائفة منهم على رأس طريق تصد عنه.

فالطائفة الأولى: معطلة الصفات والملحدون في الأسماء، قعدوا على رأس الطريق المعرِّفة بالله، حتى يحُولوا بين الرسل وأتباعهم وبين تعريف الخلق بربهم ومعبودهم المعرفة الصحيحة.

والطائفة الثانية: قعدت على رأس الطريق الموصلة إلى الله، والمقتضية الامتثال للأمر واجتناب النهي، وهؤلاء هم أهل التبديل والتحريف والتغيير، من أصحاب الآراء الفاسدة والسياسات الباطلة والأذواق المنحرفة والعادات والتقاليد البالية، ليحُولوا بين الخلق وبين السير على الطريق المستقيم، طريق الشريعة الكاملة الشاملة.

والطائفة الثالثة: قعدت علي رأس الطريق الهادية إلى العمل للجنة، والناهية عن العمل بعمل أهل النار، وهؤلاء القاعدون هم أهل الشهوات المفتونون بها، الذين يعدون تحصيل الشهوات ورغائب النفوس، غاية المراد ونهاية السعي، فقعدوا يصرفون الناس عن الاستعداد للجنة بالالتهاء في الدنيا، ولسان حالهم يقول: اليوم خمر، وغداً أمر(١).

واخطرهذه الطوائف على الإطلاق: الطائفة الأولى الصادة عن معرفة الله، أولئك اللذين ينكرون صفات الرب المعبود فلا يثبتون له ما أثبته لنفسه من صفات الكمال والجمال والجلال. وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر. قال تعالي: ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣]. فما أُتي كافر ولا عاصٍ إلا من قبل سوء

---

(١) انظر مدارج السالكين (٣/ ٣٤٩، ٣٥٠).

ظنه بربه في صفاته من علمه، وإحاطته وسمعه وبصره وحكمته. قال ابن كثير- رحمه الله - في تفسير هذه الآية: «﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكتمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم، لأنكم كنتم لاتعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم. ولهذا قال: ﴿ **ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون. وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ أي: هذا الظن الفاسد، وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملونه هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿ **فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم»(١).

وقال سبحانه في أمثال هؤلاء من الظانين به ظن السوء:

﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء، عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً** ﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في معناها: «لم يجئ مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه. وجَحْدُ صفاته وإنكار حقائق أسمائه من أعظم ظن السوء به»(٢).

فالمتأمل سيجد أن إنكار صفات الرب تعالىٰ وجحدها هو أصل الشرك، لأن الشرك أصله التعطيل، فالمشرك بالله عندما يتخذ معه شريكاً يعتقد - بظنه السيء - أنه سبحانه محتاج إلىٰ الشركاء والأعوان، أو تعوزه الضرورة إلىٰ من يعرفه بأحوال العباد - كالملوك - وعندما يجعل له شركاء في

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٦١).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٤٧).

الملك، فإنه يظن أنه لا يقدر وحده علىٰ الاستقلال بتدبير الخلق وقضاء حوائجهم، وعندما يتخذ الشفعاء ويتقرب إليهم بالعبادات والنسك فإن هذا ظن بأنه غير رفيق بهؤلاء الخلق، فيحتاج إلىٰ شفعاء يستعطفونه عليهم، وعندما ينسب له الصاحبة أو الولد، فإنه يظن بذلك أن به حاجة إلىٰ أن يتكثر بالصاحبة والولد من الذلة والقلة... تعالىٰ الله عن ظلم الظالمين وظن الظانين علواً كبيراً.

ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لقومه الواقعين في الشرك لمثل هذه الظنون ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾ [سورة الصافات: ٨٧]؟

أي: هل تظنون أنكم إذا عبدتم غيره أنه غير قادر علىٰ عقابكم، أو أنه سيترككم سدىً؟(١).

إنه من أجل أن يتلافىٰ العبد الظنون والاعتقادات الفاسدة ،فلا بد له من سَلْك سبل المعرفة بالله تعالىٰ، لكي يعبده علىٰ هدىً وبصيرة، وله إلىٰ ذلك طريقان:

الأول: الوقوف عند ماجاء في نصوص الوحي من صفات الله وأسمائه فيثبتها كما جاءت، ولايفسد معرفته لله بتأويلها أو تعطيلها أو تحريفها، فهو عندما يؤمن بصفات الله الثابتة بالوحي، فإنه سيعرف منها أن لربه صفات الكمال والجلال كلها. وسيجد أنه لا مجال لمتمحك في تأويلها أو صرفها عن المراد بها. فعندما يقول الله تعالىٰ مثلاً: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أوياتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾ [الأنعام: ١٥٨] فإن هذه الآية واضحة في إثبات مجئ الله للقضاء بين العباد يوم القيامة(٢). فأي حجة تبقىٰ للذين يؤلون المجئ بمجئ الملائكة أو مجئ الثواب أو مجئ

---

(١) انظر: تفسير الجلالين ص٥٤٤.

(٢) انظر تفسير جامع البيان (٨/٩٦).

الآيات وأشراط الساعة؟ فهل لو كان ذلك هو المقصود كانت الآيات تعدد هذه المعطوفات بهذا التتابع؟ وهل تبقىٰ مع هذا السياق شبهة أصلاً في أن المراد أن الله سبحانه يجئ بنفسه مجيئاً يليق بعظمته وجلاله سبحانه.

وعندما يقول الله تعالىٰ: ﴿ وكلم الله موسىٰ تكليماً ﴾ [سورة النساء: ١٦٤] نرىٰ الآية تثبت صفة الكلام لله سبحانه، وأنه سبحانه كلم بعض عباده من النبيين كلاماً أخص من الوحي العام الذي أوحاه إلىٰ سائر النبيين، ويدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ في أول الآية: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلىٰ نوح والنبيين من بعده ﴾[1] ففرقت الآية بوضوح بين الإيحاء العام والتكليم الخاص، وجعلتهما نوعين، ثم أكدت فعل التكليم بالمصدر الرافع لتوهم ما يقوله المحرفون المؤلون، وكذلك جاءت السنة النبوية بإثبات صفات لله تعالىٰ، إذا أخضعناها لتفسيرات أصحاب التأويل والتعطيل لفسد المعنىٰ المراد منها رغم كونها ظاهرة في التبيين والتوضيح الذي لا يشوبه لبس.. من ذلك قوله ﷺ في الحديث المتفق علىٰ صحته: (إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لاتغلبوا علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا)[2].

وواضح أن في هذا الحديث إيضاحات واحترازات تنفي التأويل بالمرة، بحيث لا يرتاب في المعنىٰ إلا مغالٍ مغالط، راغب في ليِّ أعناق النصوص.

---

(١) راجع تفسير هذه الآية في تفسير الطبري (٦ / ٢٩) وتفسير ابن كثير (٢ / ٤٢٦، ٤٢٧) وبدائع التفسير، الجامع لتفسير ابن القيم (٢ / ٨٩، ٩٠) جمع وتخريج يسري السيد محمد. دار ابن الجوزي الدمام.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٣٤) فتح الباري (١٣ / ٤٢٩) وأخرجه مسلم (٦٣٣) (١ / ٤٣٩). واللفظ للبخاري.

أما الطريق الثاني: من طرق معرفة الرب بصفاته؛ فهو دلالة الصنعة عليها. ففي المخلوق ما يدل وجوده علىٰ خالقه وعلىٰ حياته وعلىٰ قدرته وعلي علمه ومشيئته، ومافي الصنعة من الإتقان والإحكام، ووقوعها علىٰ أكمل الوجوه؛ يدل دلالة قاطعة علىٰ أن الصانع حكيم خبير، وما في الصنعة من النفع والانتفاع الذاتي والمتعدي، يدل علىٰ أن الصانع لطيف ورحيم وجواد وكريم ورؤوف، وما فيها من آثار الكمال والجمال في الخلق، يدل علىٰ أن الخالق أولىٰ من المخلوق المصنوع بكل وجوه الكمال والجمال، فمعطي الكمال أحق بالكمال، ومعطي الجمال أحق بالجمال، وخالق الأسماع والأبصار والذي أنطق كل شيء، أحق بأن يكون سميعاً بصيراً متكلماً. كما أن خالق العلوم والقدرات والإرادات، أحق بأن يكون هو كذلك في نفسه عالماً قادراً مريداً.

إن في عالم الشهادة شهوداً علىٰ أسماء الله وصفاته، فنفس المخلوق شاهد لاسم (الخالق) والمرزوق شاهد لاسم (الرزاق). وتعرض الخلق للرحمة يشهد لاسم (الرحيم) وتعرضهم للطف يشهدلاسم (اللطيف) وتوفيقهم للتوبة بعد الإساءة يشهد لاسم (التواب) وتعرضهم بعد الشكر للزيادة يشهد لاسم (الشكور) ومعاقبتهم علىٰ التمادي في الغي والظلم، يشهد لاسم (الجبار والعزيز وشديد العقاب ذي الانتقام). وهكذا.

وكذلك ما يأمر الله تعالىٰ به من تكاليف وشرائع له دلالة علىٰ أسمائه وصفاته، فإنه سبحانه إذ أمر بالعدل، فهو (الحكم والحاكم بالعدل) وإذ أمر سبحانه بالإحسان، فذلك شاهد علىٰ أنه (ولي الإحسان)، وإذ يحث علىٰ العفو، فذلك يدل علىٰ أنه (العفُو) وعندما يأمر بالرحمة والمودة والمحبة و الكرم؛ كانت تلك شواهد علىٰ أنه (الرحيم) (الودود) (الكريم) الذي يحب ويرضي، ويرحم ويكرم بأحسن الجزاء، وكذلك إذا أمر بالغلظة علىٰ الكفار والمعاندين، وإلحاق العقوبة بالعصاة الظالمين، كانت تلك الأمور شواهد علىٰ أنه (شديد العقاب)، (عزيز ذو انتقام) يمقت ويغضب

ويجزي المسيء بإساءته إن لم يرجع. وهكذا.. كل اسم من أسمائه الحسنىٰ له شاهد في خلقه وأمره، يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله، فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته. قال تعالىٰ: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ علىٰ العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾ [سورة الأعراف: ٥٤].

فعلىٰ المسلم إذا أراد أن يكون من العارفين بالله حق المعرفة أن يطالع بقلبه أسماء وصفات إلهه وخالقه، ليعبد الله علىٰ بصيرة ومحبة، ويعرف له عظمته وجلاله. وليتأمل المسلم في سطور الوحي المعصوم، ويطالع في صفحات الكون المنظوم، فسوف يجد في هذين السفرين إجابات تشفي عليله، وتروي غليله.

كما قال الشاعر:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلىٰ إليك رسائل
وقد خط فيها - لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدي ومن هو قائل

فليحرص العبد علىٰ هذا، وليسأل الله أن يجعل له نوراً يبصر به شواهد صفاته العلا، لأن هذا النور كلما قوي في قلب العبد، كلما كانت له بصيرة بما يليق بالله تعالىٰ من صفات الكمال والجلال، وإذا نقص هذا النور أو طُفئ مصباحه في القلب، فإن نور التصديق سينطفئ في قلبه ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً، فما له من نور﴾ [سورة النور: ٤٠].

قال ابن القيم - رحمه الله -: «فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها وتعلق القلب بها، وشهوده لها، هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته، وهو روح السالكين وحاديهم إلىٰ الوصول ومحرك عزماتهم إذا فتروا، ومثير هممهم إذا قصّروا، فإن سيرهم إنما هو علىٰ الشواهد: صفات محبوبهم

ونهاية مطلوبهم» وقال: «فإن أوصاف المدعو إليه ونعوت كماله وحقائق أسمائه، هي الجاذبة للقلوب إلىٰ محبته وطلب الوصول إليه، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه وتخافه وترجوه وتشتاق إليه وتلتذ بقربه وتطمئن إلىٰ ذكره، بحسب معرفتها بصفاته»(١).

وهذا المعنىٰ قرره الحسن البصري - رحمه الله - بعبارة وجيزة عندما قال: «من عرف ربه احبه»(٢).

وهذا الحب إذا تمكن في القلب، وتملك الفؤاد، فإن المؤمن معه لاتكون له محبة مستقلة، ولا بغضاء منفصلة، فهو إذا احب احب لله وإذا ابغض ابغض لله، ولا يبقىٰ لنفسه حظ عند نفسه، بحيث ينشغل بالمنافحة عنها، والتفرغ من اجلها، إلا في حدود ما يحب الله، وهذا اثر مرئي مشاهد، يُعرف في سلوك العارفين. حكىٰ العلامة ابن القيم عن شيخه الإمام ابن تيمية - رحمهما الله - انه كان يقول: «العارف: لا يرىٰ له علىٰ احد حقاً ولا يشهد له علىٰ غيره فضلاً، ولذلك لايعاتب ولا يطالب ولا يضارب»(٣).

لا تغفلن - ايها المحب لله - وانت تطالع بقلبك اسماء الله وصفاته لتزداد معرفة به وحباً له ... لا تغفلن عن هداية القرآن في ذلك، فالقرآن هو دليل المعرفة التامة بالله عز وجل: قال في الفوائد: «وانت إذا تدبرت القرآن، واجرته من التحريف، وان تقضي عليه بآراء المتكلمين وافكار المتكلفين، اشهدك ملكاً قيوماً فوق سماواته علىٰ عرشه، يدبر امر عباده، يامر وينهىٰ ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضىٰ ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرىٰ من فوق سبع

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٥١).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٣٣٢.

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٢٣).

ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع»(١).

هذا.. ولا بد بعد معرفة العبد لربه، ومحبته له، أن يبرهن علىٰ سلامة هذه المعرفة، وصدق تلك المحبة، وذلك بأن يتعبد الله بمقتضىٰ تلك المعرفة، فيتعرُّف على محبوبات الله ليتقرب بها، ويتعرف على مبغوضاته ليبتعد عنها. قال الحارث المحاسبي - رحمه الله -: «وإنه ليس شيء أولىٰ بالعبد بعد معرفة الله، من معرفة مايكره الله، وهو الذي نهاه عنه، وتقدم فيه بالوعيد والزجر والتحذير، ثم معرفة ما أحب الله، وهو الذي أمر به، ورغب فيه . فأبلغ الأعمال إلىٰ رضوان الله مفارقة ما يكره الله، ثم مباشرة ما يحب الله تعالىٰ وما رغب فيه.

فانظر يا أخي: إذا أصبحت فلا يكن شيء أهم إليك من أن تميت خصلة تهواها نفسك مما يكره الله تعالىٰ، فإنه يحيا لك مكانها خصلة مما يحب الله، ولك بعد ذلك التضعيف من النور الساطع في قلبك والفهم.

واعلم يا أخي أن الدنيا منها حلال مباح، ومنها شبهات ومنها حرام، فإذا كان في قلب العبد عقدة متمكنة من عقد حب الحلال المباح؛ لم تنقطع عنه مواد نوازع الشبهات والمكروهات، وإذا كان في قلبه عقدة متمكنة من عقد حب الشبهات والمكروهات، لم تنقطع عنه مواد نوازع الحرام، فكل من تمكنت الشبهات من قلبه، واطمأن إلىٰ أخذها، وقع في الحرام، لأن الشبهات أقرب إلىٰ الحرام منها إلىٰ الحلال»(٢).

* * *

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٧١.

(٢) آداب النفوس، للحارث المحاسبي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا (ص ١٢١، ١٢٢) مؤسسة الكتب الثقافيه - بيروت.

السبب السادس

مشاهدة بره وإحسانه، وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

[مشاهدة بره وإحسانه، وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلىٰ محبته].

العبد أسير الإحسان - كما يقولون - فالإنعام والبر واللطف، معاني تسترق مشاعره، وتستولي علىٰ أحاسيسه، وتدفعه إلىٰ محبة من يسدي إليه النعمة ويهدي إليه المعروف.

ولا منعم علىٰ الحقيقة ولا محسن إلا الله، هذه دلالة العقل الصريح والنقل الصحيح، فلا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة كلها سواه.

وإيضاح ذلك يرجع - بمقتضىٰ العقل - إلىٰ أسباب:

أحدها: أن الإنسان يحب نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان. وهذه جبلة كل حي، لا يتصوران ينفك عنها. وهذا يقتضي غاية المحبة لله عز وجل، فإن الإنسان إذا عرف ربه، عرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله، وأنه البارئ له، الموجِد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل. وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟

السبب الثاني: أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه وانتدب لنصرته وقمع أعدائه وأعانه علىٰ جميع أغراضه، فإنه محبوب عنده لا محاله.

وإذا عرف الإنسان حق المعرفة، علم أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالىٰ فقط، وأنواع إحسانه لا يحيط بها حصر.

بيان ذلك أنه لو فُرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك، ومكنك فيها لتتصرف كيف شئت، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه،

وهذا غلط، فإنه إنما تم إحسانه بماله وبقدرته علىٰ المال وبداعيته الباعثة له علىٰ صرف المال بإرادة الله، وإلا فمن الذي انعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته؟ ومن الذي حببك إليه؟ وصرف وجهه إليك، والقىٰ في نفسه ان صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك، ولولا ذلك ما اعطاك؟ فكانه صار مقهوراً في التسليم لا يستطيع مخالفته.

السبب الثالث: ان المحسن المنعم من البشر، محبوب في الطباع وإن لم يصل إليك إحسانه، فإنك لو بلغك عن ملك من الملوك انه عالم عابد عادل، رفيق بالناس متلطف بهم، وهو في قطر بعيد فإنك تحبه، وتجد في نفسك ميلاً كثيراً إليه، فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن، فضلاً عن ان يكون محسناً إليك، فكيف بمن انت اثر من آثار إحسانه،؟ بل حسنة من حسنات قدرته؟

إن هذا يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي ان لا يُحب غيره، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب، فإنه سبحانه هوالمحسن إلىٰ الكل كافة بإيجادهم وتكميلهم ومدهم بالاسباب التي هي من ضروراتهم وترفيههم، إلىٰ غير ذلك من النعم التي لا تحصى»[١].

إن العقل الذي يحتم مع النقل محبة الله تعالي لاجل إحسانه وآلائه ونعمه، هذا العقل نفسه، يقف عاجزاً عن إحصاء هذه الآلاء وتلكم النعم، فكيف يحصيها في طباق السماء وفي آفاق الارض؟ كيف يحصيها في سحابات النهار، او ساعات الليل، كيف يعدها في نفسه او في الكون المسخرله. قال تعالى: ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس

---

(١) مختصرمنهاج القاصدين-٢٢٣، ٢٢٤) باختصار وتصرف.

والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾

[إبراهيم: ٣٢، ٣٤].

« أفكل هذا مسخر للإنسان؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير؟ السماوات ينزل منها الماء، والأرض تتلقاه والثمرات تخرج من بينهما، والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخرة والأنهار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان. والشمس والقمر مسخران دائبان لايفتران. والليل والنهار يتعاقبان.. أفكل أولئك للإنسان؟ ثم لا يشكر ولا يذكر؟!..

﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾

﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾.

الزرع مورد الرزق الأول، ومصدر النعمة الظاهر. والمطر والإنبات كلاهما يتبع السنة التي فطر الله عليها هذا الكون، ويتبع الناموس الذي يسمح بنزول المطر وإنبات الزرع وخروج الثمر، وموافقة هذا كله للإنسان. وإنبات حبة واحدة يحتاج إلىٰ القوة المهيمنة علىٰ هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره في إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء..

والناس يسمعون كلمة (الرزق) فلا يتبادر إلىٰ أذهانهم إلا صورة الكسب للمال. ولكن مدلول (الرزق) أوسع من ذلك كثيراً. وأعمق من ذلك كثيراً... إن أقل (رزق) يرزقه الكائن الإنساني في هذا الكون، يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن بعد وجوده حياة وامتداد، ويكفي ماذكر في هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر

ليدرك الإنسان كيف هو مكفول محمول بيد الله...

﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾.

بما أودع في العناصر من خصائص تجُري الفلك علىٰ سطح الماء وبما أودع في الإنسان من خصائص يدرك بها ناموس الأشياء، وكلها مسخرة بإرادة الله للإنسان.

﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ تجري فتجري الحياة وتفيض فيفيض الخير، وتحمل فتحمل في جوفها من أسماك وأعشاب وخيرات.. كلها للإنسان، ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان.

﴿ وسخرلكم الشمس والقمر دائبين ﴾...

لا يستخدمهما الإنسان مباشرة كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأنهار.. ولكنه ينتفع بآثارهما ويستمد منهما مواد الحياة وطاقاتها. فهما مسخران بالناموس الكوني ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان في حياته ومعاشه، بل في تركيب خلاياه وتجديدها.

﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾...

سخرهما كذلك وفق حاجة الإنسان وتركيبه، ومايناسب نشاطه وراحته. ولو كان نهار دائم أو ليل دائم، لفسد جهاز هذا الإنسان، فضلاً علىٰ فساد ما حوله كله، وتعذرحياته ونشاطه وإنتاجه.

إن هذه ليست سوىٰ الخطوط العريضة في صفحة الآلاء المديدة. ففي كل خط من النقط مالا يحصىٰ. ومن ثم تضم إليها علىٰ وجه الإجمال بقية النعم.. ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع...

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾...

فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر، أو كل

البشر(١)».

إن قول الله تعالىٰ ﴿ وإن تعدو نعمة الله لاتحصوها ﴾ تكررت في سورة إبراهيم وسورة النحل، التي هي سورة (النعم). ولكن آية النعمة في سورة (النعم) ختمت بقوله تعالى: ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ [النحل: ٨] في حين أنها ختمت في سورة إبراهيم بقوله تعالى﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾.

وللمفسرين كلام في توجيه ختم هذه بهذا، وتلك بذاك قال صاحب (ملاك التاويل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل): « الجواب عنه – والله اعلم – ان آية إبراهيم تقدمها قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلىٰ الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دارالبوار ﴾ [إبراهيم: ٢٨] ثم قوله: ﴿ وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ﴾ [إبراهيم: ٣٠]. ثم ذكر إنعامه علىٰ عباده، فناسب ما ذكره تعالىٰ من توالي إنعامه، ودُرور إحسانه ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجَعْل الأنداد، وصف الإنسان بانه ظلوم كفَّار، اما آية النحل، فلم يتقدمها غيرما نبه سبحانه من توالى إحسانه، وما ابتداهم به من نعمه... فناسب ختام هذا قوله تعالىٰ ﴿ إن الله لغفوررحيم ﴾.. وجاء كل علىٰ ما يجب، والله اعلم»(٢).

وللرازي – رحمه الله – توجيه آخر أوضح وأجمل. قال: «لما تاملت فيه، لاحت لي فيه دقيقة. كانه سبحانه يقول: إذاحصلت النعم الكثيرة فانت أخذتها وأنا اعطيتها، فحصل لك عند اخذها وصفان: وهما كونك ظلوماً كفاراً، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفوراً رحيماً، والمقصود، كانه يقول: إن كنتَ ظلوماً؛ فانا غفور وإن كنتَ كفاراً فانا

(١) في ظلال القرآن. تاليف سيد قطب (٤/ ٢١٠٧، ٢١٠٨) دار الشروق بيروت.

(٢) ملاك التاويل في توجيه المتشابة اللفظ من آي التنزيل تاليف الشيخ احمد بن الزبير الغرناطي (٢/ ٥٨٠، ٥٨١).

رحيم، أعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير، ولا أجازي جفاك إلا بالوفاء»(١).

وعلى أية حال، فلسنا مأمورين بإحصاء النعم، لطفاً من الله ورحمة، لأن لكل منها شكراً واجباً، والإنسان يعجز عن ذلك، ولكننا مطالبون بمشاهدة النعم ومطالعتها والتفكر فيها وأداء المستطاع من شكرها حسب الطاقة والوسع، فإنَّ ذكر النعم والاعتراف بها من شكرها، والتفكر فيها وفي كيفية الإنعام بها من شكرها... بل إن هذا التفكر هو في ذاته عبادة أخرى، فالمطالع المتأمل في نعم الله يجمع بين عبادتي الشكر والفكر؛ قال تعالى ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وإذا كان الكون الفسيح على اتساعه وارتفاعه مجال رحيب للتفكر في خلق الله فإن في الإنسان نفسه مجالاً أقرب للتفكر وأرحب لمشاهدة النعم، فبناء الإنسان كيان مستقل تتجسد فيه العبر والعجائب.

قال تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [سورة الذاريات: ٢١].

فلنتأمل مع ابن الجوزي - رحمه الله - كيف أتم الله علينا النعمة، ولنتفكر في بعض آلاء الله ونعمائه التي أنعمها على الإنسان:

يقول - رحمه الله -: «... فلو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التي يتم بها الأكل على سبيل التلويح، لا على سبيل الاستقصاء فنقول: من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة

(١) التفسير الكبير للرازي (١٩/١٠٣).

الإحساس، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلىٰ ترتيب حكمة الله تعالىٰ في الحواس الخمس، التي هي آلة للإدراك.

فأولها: حاسة اللمس، وهي أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة، فافتقرت إلىٰ حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد، ولكن لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة فتحتاج أن تطوف كثيراً حتىٰ تعثر علىٰ الذي شممت رائحته، وربما لن تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتىٰ تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفي ذلك، لو لم يكن لك حس الذوق، إذ به تعلم ما يوافقك ومايضرك، بخلاف الشجرة، فإنه يصب في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالىٰ بصفة أخرىٰ، هي أشرف من الكل، وهي العقل، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتها، وما يضر في المآل، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أدنىٰ فوائد العقل، والحكمة الكبرىٰ فيه معرفة الله تعالى، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة، فهي بعض الإدراكات. ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك، فإن البصر واحد من الحواس، والعين آلة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات، وبعضها أغشية مختلفة، لكل واحدة من الطبقات العشر، صفة وصورة، وشكل، وهيئة، وتدبير، وتركيب، لو اختلت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة لا ختل البصر، وعجز عنه الأطباء جميعهم، فهذا في حس واحد، وقس حاسة السمع وسائرالحواس، ولا يمكن أن يستوفىٰ ذلك في مجلدات، فكيف

ظنك بجميع البدن؟!

ثم انظر بعد ذلك في خلق الإرادة والقدرة، وآلات الحركة من أصناف النعم، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتىٰ تدرك به الطعام ولم يخلق لك في الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك علىٰ الحركة، كان البصر معطلاً، فكم من مريض يرىٰ الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر عل تناوله لسقوط شهوته، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك، كالمتقاضي الذي يضطرك إلىٰ تناول الغذاء.

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام، لأسرفت وأهلكت نفسك، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، وكذلك القول في شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل.

ثم خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء وغيره، منها اليدان، وهما مشتملتان علىٰ مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات وتمتد وتنثني، ولا تكون كخشبة منصوبة.

ثم جعل رأس اليد عريضاً، وهو الكف، وقسّمه خمسة أقسام، وهي الأصابع وجعلها مختلفة في الطول والقصر، ووضعها في صفين، بحيث يكون الإبهام في جانب، ويدور علىٰ الأصابع البواقي، ولو كانت مجتمعة متراكمة، لم يحصل تمام الغرض، ثم خلق لها أظافر، وأسند إليها رؤوس الأصابع، لتتقوىٰ بها ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد، فلا يكفيك حتىٰ يصل إلىٰ باطنك، فجعل لك الفم واللحيين، خلقهما من عظمين، وركب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام، فبعضها قواطع كالرباعيات، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضراس. وجعل اللحىٰ الأسفل متحركاً حركة دورية، واللحىٰ الأعلىٰ ثابتاً لا يتحرك، فانظر إلىٰ عجيب صنع الله تعالىٰ وإن كل رحىٰ صنعها

الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلىٰ إلا هذه الرحىٰ التي هي صنع الله سبحانه وتعالىٰ، فإنه يدور منها الأسفل علىٰ الأعلىٰ، إذ لو دار الأعلىٰ خوطر بالأعضاء الشريفة التي يحتوي عليها.

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم، ويرد الطعام من الوسط إلىٰ الأسنان بحسب الحاجة، كالمجرفة التي ترد الطعام إلىٰ الرحى، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق.

ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس، فما تقدرعلىٰ الابتلاع إلا بأن ينزلق إلىٰ الحلق بنوع رطوبة.

فانظر كيف خلق الله تعالىٰ تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب، وينصب بقدر الحاجة حتىٰ ينعجن به الطعام.

ثم هذا الطعام المطحون المعجون، من يوصله إلىٰ المعدة وهو في الفم، فإنه لا يمكن إيصاله باليد، فهيأ الله تعالىٰ المريء والحنجرة، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام، ثم ينطبق وينضغط حتىٰ يقلب الطعام، فيهوي في دهليز المريء إلىٰ المعدة، فإذا ورد الطعام إلىٰ المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً علىٰ هذه الهيئة حتىٰ يطبخ طبخاً تاماً فجعل الله المعدة علىٰ هيئة قدر يقع فيها الطعام، فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب وينضج بالحرارة التي تتعدىٰ إليها.

... وفي الآدمي من العضلات والعروق مالا يحصىٰ، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة، وكل ذلك من الله سبحانه، ولو سكن من جملتها عرق متحرك،او تحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين(١).

ومن أراد في عصرنا هذا أن يعبد الله بالتفكر في آلائه، ليتنقل بذلك

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٢٦٩ - ٢٧٢.

في أرجاء عبادة الشكر لنعمائه، فإنه سيجد المجال رحباً، بعدما تفجرت ينابيع عظيمة من المعارف والاكتشافات الدالة علي عظمة الخالق المنعم جل وعلا.

فمع التفكر في مبدأ خلق الإنسان من تراب؛ سيجد المطالع لكشوفات العلم الحديث أنه أثبت أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض، فهو يتكون من الكربون والاكسجين والأيدروجين والفوسفور والكبريت والآزوت والكالسيوم والبوتاسيوم والصوديوم والكلور والمغنسيوم والحديد والمنجنيز والنحاس واليود والفلورين والكوبالت والزنك والسلكون والالمونيوم. وهذه نفسها هي العناصر المكونه للتراب إلاأن أصنافها واحدة.

قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [الروم: ٢٠] وعندما تنتهي حياته بعد الانتشار، فإنه يعود تراباً، فيتحلل إلى نفس العناصر ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: ٥٥] فإذا خطونا خطوة واسعة لنصل إلى تناسل هذا المخلوق الترابي فسنجد العلم الحديث يحدثنا عن آية الخلق...

إن الدفعة الواحدة من ماء الرجل تحتوي على نحو ستين مليوناً من الحيوانات المنوية، كلها تدخل في سباق في رحم المرأة، ولا يعلم أحد الذي يسبق، ثم يصل السابق من بين ستين مليوناً، ويلتحم مع البويضة ليكوّنا معاً خلية واحدة ملقحة، هي التي ينتج منها الجنين ولما كانت كل كروموسومات البويضة مؤنثة بينما كروموسومات التذكير أو كروموسومات التأنيث في الحيوان المنوي بعضها مذكر وبعضها مؤنث، فإن غلبة عدد كروموسومات التذكير أو كرموسومات التأنيث في الحيوان المنوي الذي يلتحم بالبويضة هو الذي يقرر مصير الجنين ذكراً أو أنثى – وهذا خاضع لقدر إلهي، هو غيب لا علم به ولا دخل للبشر، بمن فيهم والديّ الجنين أنفسهما...!

وبعد أن تلقح البويضة بالحيوان المنوي، تلتصق بالرحم، وهي مزودة بخاصية أكّالة، تمزق جدارالرحم حولها، وتحولها إلى بركة من الدم المناسب لا متصاصها ونموها..! والحبل السُّري الذي يربط الجنين بامه ليتغذى منها حتى يتم وضعه، رُوعى في تكوينه ما يحقق الغرض الذي تكوَّن من اجله، دون إطالة، قد تسبب تخمّر الغذاء فيه، او قصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه.

حقاً إنها آية جديرة بالتامل... تراب يتفاعل.. ثم يتناسل. قال تعالى: ﴿ والله خلقم من تراب ثم جعلكم أزواجاً.. ﴾ [فاطر: ١١].

وهذا التزاوج ينتج اطفالاً... فماذا عن الرعاية الإلهية للطفل قبل أن يخرج إلى أم حانية ترعاه.. وبعد أن يخرج إلى الحياة؟..

إن الشدي يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلاً ابيض ما ئلاً إلى الاصفرار، ومن عجيب صنع الله، أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذاتية، تقي الطفل من الامراض! وفي اليوم التالي للميلاد يبدأ اللبن في التكون.

ومن تدبير المنعم جل وعلا؛ أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الشدي يوماً بعد يوم، حتي يصل إلي حوالي لتر ونصف في اليوم بعد سنة. بينما لا تزيد كميته في الايام الأولى على بضع اوقيات. ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التي تزيد علي حسب زيادة الطفل، بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوناته، فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى، بل يوماً بعد يوم، بما يوافق انسجة واجهزة الطفل المستمر في النمو...

اليس التفكر والتامل في كل هذا من دواعي محبتنا لله سبحانه..؟ ... اليس من دواعي زيادة الإيمان...؟ بلى والله. قال تعالى: ﴿ هو الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً... ﴾ [غافر: ٦٧].

وماذا بعد ان يخرجنا طفلاً...؟

إن تتبع الاجهزة المختلفة في تكوين الإنسان بعد ميلاده، وأدائها لوظائفها وطريقة عملها، ودور كل منها في المحافظة علي حياته وصحته... إن هذا التتبع يكشف عن العجب العجاب في دقة التقدير وكمال التدبير، ويرينا يد القدرة وهي تدبر امر كل فرد، بل كل عضو، بل كل خلية من خلاياه، وعين الله تكلؤه وترعاه... فإذا هو إنسان قويم، يسمع ويبصر، ويتحرك ويعقل، ويشرب ويأكل ويتناسل ليبقى ويكثرا

فلناخذ مثلاً آخر على القدرة واللطف والحكمة الإلهية، التي بها اسبغ الله نعمته على هذا المخلوق الذي كرّمه، وحباه... السمع والبصر ،كما قال سبحانه ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ [الإنسان:].

إن جعْله سميعاً بصيراً نعمة اخرى عظيمة، واجب عليه ان يذكرها ليشكرها فالله تعالى يقول: ﴿ قل هو الذي أنشاكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [الملك: ٢٣].

إن السمع والأبصار معجزتان كبيرتان، عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة، والافئدة التي يعبر بها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة معجزة أعجب واغرب، ولم يعرف بعد عنها إلا القليل، وهي سر الله في هذا المخلوق الفريد..

وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن معجزتي السمع والبصر، نذكر منها لمحة:

تبدأ حاسة السمع بالاذن الخارجية، ولا يعلم إلا الله اين تنتهي. ويقول العلم: إن الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينتقل إلى الاذن التي تنظم دخوله ليقرع طبلة الاذن، وهذه تنقلها إلى «التيه» داخل الاذن. «والتيه» يشتمل على نوع من الاقنية، بين لولبية ونصف مستديرة، وفي

القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس، فما طول القوس منها وحجمها؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ عدة آلاف كل منها تركيباً خاصاً؟ وما الحيز الذي وضعت فيه؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة. هذا كله في التيه الذي لا يكاد يُرى!

وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية. وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة.. دقة تحير الألباب.

ومركز حاسة الإبصار العين، التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، وهي أطراف أعصاب الإبصار، وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية... وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية. وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصله، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات، ويقدر عدد الأولى بثلاثين مليون عود، وعدد الثانية بثلاثة ملايين مخروط، وقد نظمت كلها في تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض، وبالنسبة للعدسات..

وعدسة عينيك تختلف في الكثافة، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة، ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلاً(١).

إنها محاولات يحاول العلم بها أن يحوم حول حقائق القدرة والإنعام واللطف، فيظفر حيناً، ويخفق أحياناً، فيوقن أن إحصاء النعم أمر محال... وإذا كان العقل قد استطاع أن يطوف في عالم الحقائق المتعلقة بالسمع والإبصار وغيرها فإنه لا يزال عاجزاً عن معرفة نفسه وإدراك كنهه...!

---

(١) راجع كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) ترجمة محمود صالح الفلكي ص١١٣ وكتاب (الله والعلم الحديث) لعبد الرزاق نوفل الصفحات (٥٧، ٥٨).

فالعقل المعبر عنه في القرآن في الآية السابقة بـ (الأفئدة)؛ أمر فوق الإدراك.

يقول سيد قطب - رحمه الله - «فأما الأفئدة، فهي هذه الخاصية التي صار بها الإنسان إنساناً، وهي قوة الإدراك والتمييز والمعرفة التي استخلف بها الإنسان في هذا الملك العريض، والتي حمل بها الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال. أمانة الإيمان الاختياري والاهتداء الذاتي والاستقامة الإرادية على منهج الله القويم...

ولا يعلم أحد ماهية هذه القوة ولا مركزها، داخل الجسم أو خارجه! فهي سر الله في الإنسان، لم يعلمه أحد سواه.

وعلى هذه الهبات الضخمة التي أعطيها الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى فإنه لم يشكر: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به. كما يذكرهم القرآن في هذا المجال، ويذكّر كل جاحد وكافر، لا يشكر نعمة الله عليه، وهو لا يوفيها حقها ولو عاش للشكر دون سواه!»(١)!

* * *

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٦/ ٣٦٤٥، ٣٦٤٦).

السبب السابع

وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

[وهو من أعجبها : انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالىٰ، وليس في التعبير عن هذا المعنىٰ غير الأسماء والعبارات].

هذا السبب من أسباب المحبة، كاد ابن القيم - رحمه الله - أن يغلق دوننا باب الاسترسال في شرحه بقوله: «ليس في التعبير عن ذلك إلا الأسماء والإشارات».

فكيف يسهل بعد ذلك الحديث عن شيء يصفه ابن القيم بهذا الوصف؟!

ولكن لابد لنا من محاولة الاقتراب من مقصوده، حتىٰ يتحقق الغرض من هذا الشرح.

إن كلام ابن القيم هذا يحوم حول معاني: الإخبات، والخشوع، والتذلل،و الافتقار، ومراعاة الأدب مع الله تعالىٰ. وكلها معانٍ يجتمع فيها معنىٰ «الانكسار».

ولكن الخشوع - بمعناه العام - قد يكون أقرب لجمع تلكم المعاني، ولهذا سيكون مدار الشرح هنا حوله.

فالخشوع في أصل اللغة هو: الانخفاض والذل والسكون، يقال: خشع يخشع خشوعاً، وتخشَّع الرجل، يعني: رمي ببصره نحو الأرض وغضه، وخفض صوته. وخشع بصر الرجل، يعني: انكسر.(١) واستعمل الخشوع في القرآن بهذه المعاني. قال تعالىٰ: ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً** ﴾ [سورة طه: ١٠٨] يعني: سكنت وذلت وخضعت(٢). وقال تعالىٰ: ﴿ **ومن آياته أنك ترىٰ الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت** ﴾ [سورة فصلت: ٣٩] أي: كانت يابسة

---

(١) لسان العرب (٢/١١٦٥) مادة (خشع).

(٢) تفسير الجلالين ص٤١٦.

مستكنة، لانبات فيها ولا زرع يحركها فإذا نزل الغيث اهتزت وتحركت(١) هذا من حيث معنى الخشوع في أصل اللغة، أما من حيث استعماله في الشرع فقد تلونت عبارات السلف في تعريفه:

- فقيل: «الخشوع»: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل.

- وقيل: «الخشوع»: الانقياد للحق، وعلامة ذلك أن يستقبل العبد النصيحة فيما خولف فيه بالقبول والانقياد.

- وقيل: «الخشوع»: خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب.

- وقيل: الخشوع: تذلل القلوب لعلام الغيوب(٢).

وهذه العبارات - كما ترى - ترتكز على أن القلب هو موضع الخشوع، ثم ينعكس أثره على الجوارح، وقد فصّل الراغب الأصفهاني هذا المعنى فقال: «الخشوع: الضراعة ،وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح. والضراعة أكثر ماتستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل: إذا ضرع القلب: خشعت الجوارح»(٣).

فالقلب هو موضع التأثر والتأثير فيما يتعلق بالخشوع.

ولا يتم تأثره بذلك إلا باجتماع خلال به وأحوال فيه. قال ابن القيم: «الحق أن الخشوع معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار»(٤). فليتحسس العبد منا مواقع هذه المنازل في قلبه قبل أن يتساءل عن فقدان الخشوع.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٥/ ١٢٢).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥٢١).

(٣) (المفردات) للراغب الأصفهاني مادة (خشع) ص٢٩٥.

(٤) مدارج السالكين (١/ ٥٢٢).

إن الخشوع علىٰ هذا، حال عامة، تعرض لكيان الإنسان في أوقات قربه من الله عز وجل، فهي مطلوبة منه في عامة أمره، لا في حال الصلاة فحسب، وإن كانت الصلاة موضعاً لظهور أثر الخشوع، لافتراض أن العبد أقرب مايكون إلىٰ ربه فيها. فالخشوع روحها، وأحسن آدابها، وهي مظنة حضوره واستدعائه.

فالخشوع أثناء الصلاة لا ينفك عن خشوع القلب خارجها. أما أن يكون المرء غافلاً طوال الأوقات ويريد أن يكون خاشعاً في الصلوات... فهيهات هيهات. ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ **قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ [سورة المؤمنون: ١] فهم حققوا الإيمان أولاً فخشعت لذلك قلوبهم ثانياً، وظهر أثر ذلك في صلاتهم وفي بقية صفاتهم المذكورة في الآيات قال مجاهد: «الخاشعون، هم المؤمنون حقاً»(١).

وقد كان للسلف في الخشوع بين يدي الله أحوال عجيبة، تدل علىٰ ما كانت عليه قلوبهم من صفاء ونقاء... كان عبد الله بن الزبير – رضي الله عنهما – إذا قام في الصلاة، كأنه عود، من الخشوع. وكان يسجد فتنزل العصافير علىٰ ظهره لا تحسبه إلا جذع حائط..!

وقال ميمون بن مهران: مارأيت مسلم بن يسار ملتفتاً في صلاة قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها، وإنه لفي المسجد يصلي فما التفت. وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا فإذا قام إلىٰ الصلاة تكلموا وضحكوا.

وكان علي بن الحسن – رضي الله عنهما – إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ قال: أتدرون بين يدي مَنْ أريد أن أقوم؟(٢).

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣٧٥).

(٢) انظر: مختصر منهاج القاصدين ص٢٦.

لقد كان هؤلاء يحيون صلاتهم فتحيا قلوبهم بها، وتقر أعينهم فيها، وكيف لا تقر العيون بالصلاة الحية ورسول الله ﷺ يقول: (**وجُعلت قرة عيني في الصلاة**)[١]؟

نعم... إن الصلاة حياة القلب، والخشوع حياة الصلاة. فلنقف مع ابن الجوزي مع: حياة الصلاة... كيف تكون...؟ وبماذا تحصل...؟ ومتىٰ تحدث...؟ يقول - رحمه الله -: «المعاني التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة:

المعنىٰ الأول: حضور القلب، ومعناه: أن يفرغ القلب من غير ما هو مُلابس له، وسبب ذلك: الهمة[٢]. فإنه متىٰ أهمك أمرٌ حضر قلبك ضرورة، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلىٰ الصلاة. وانصراف الهمة يقوىٰ ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا. فمتىٰ رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة فاعلم أن سببه ضعف الإيمان، فاجتهد في تقويته.

المعني الثاني: التفهم لمعنىٰ الكلام، فإنه أمر وراء حضور القلب، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنىٰ، فينبغي صرف الذهن إلىٰ إدراك المعنىٰ بدفع الخواطر الشاغلة، وقطع موادها فإن المواد إذا لم تنقطع، لم تنصرف عنها[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٢٨، ١١٩، ٢٨٥) وأخرجه النسائي في باب عشرة النساء (١) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي ح (٣٦٨٠) (٣/٨٢٧).

(٢) يعني: الاهتمام والإقبال بجد عليها. وهنا مربط الفرس لوتأملنا.

(٣) ذكر ابن الجوزي هنا نوعين من المواد الشاغلة، فهي إما ظاهرة، وهي مايشغل السمع والبصر، وإما باطنة - وهي أشد - كمن تشعبت به الهموم والأفكار، وذكر أن علاج الشواغل الظاهرة بالابتعاد عما يشغل السمع والبصر، وعلاج الشواغل الباطنة أن يرد =

المعنىٰ الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد من شيئين:

معرفة جلال الله تعالىٰ وعظمته، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين الاستكانة والخشوع.

ومن ذلك الرجاء، فإنه زائد علىٰ الخوف فكم من معظم ملكاً يهابه لخوف سطوته، كما يرجو بره. والمصلىٰ ينبغي أن يكون راجياً بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب(١).

إن صلاة هذه روحها، وتلك حياتها، وذلك سجودها وركوعها وخشوعها، لهي جديرة بأن تنظف الإنسان من الأوضار، وتضع عنه الأوزار.

ولكن - وكما سبقت الإشارة - فإن الخشوع معنىً أعم من أن ينحصر في الصلاة، فإنه إذا كان يعني التعظيم والمحبة والانكسار، فإن ذلك كله مطلوب من المرء المسلم في كل حال.

وهذه أمور لا تعبر عنها الرسوم والصور التي يبدو فيها الشخص للناس في هيئته ومشيته وملبسه ومأكله ومشربه، لا... بل هي حال مع الله، لا يطلع عليها إلا الله، ولا ينبغي للمرء أن يتطلع فيها لغير الله.

قال سفيان الثوري: سألت الأعمش عن الخشوع، فقال: يا ثوري، أنت تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع؟! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع فقال: يا أعيمش.. تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع..؟! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس، لكن

= نفسه قهراً إلى ما يقرأ في الصلاة أو يسمع ،ولا يسترسل مع الفكر والشرود. وإنما ذكرت هذا هنا اختصاراً للتنبيه.

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦- ٢٨ .باختصار.

الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء، وتخشع لله في كل فرض افترض عليك»(١). لقد كان السلف يحذرون من التكلف أو التصنع في الخشوع.

قال حذيفة – رضي الله عنه – «إياكم وخشوع النفاق». فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: «أن ترى الجسد خاشعاً، والقلب ليس بخاشع».

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً طاطا رقبته في الصلاة، فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب، إن الخشوع في القلوب».

ورأت عائشة رضي الله عنها شباباً يمشون ويتماوتون في مشيتهم فقالت لأصحابها: من هؤلاء فقالوا: نُسَّاك. فقالت: «كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقاً»(٢).

فعمر رضي الله عنه، كان يأتي بحقيقة الخشوع، لهذا كانت الناس تهابه، بل تهابه الشياطين، لأنه يهاب الله ويخشع له، دونما تكلف أو تنطع. قال سهل بن سعد «من خشع قلبه، لم يقرب منه الشيطان»(٣).

وقد تكلم ابن القيم – رحمه الله – عن هذا الخشوع الصادق، وذكر أن له درجات ثلاث، وهي – اختصاراً – على مايلي:

الدرجة الأولى: التذلل لأمر الله، وذلك بأن يتلقاه العبد بذلة الانقياد

---

(١) تفسير القرطبي (١/٣٧٥).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/٥٢١).

(٣) مدارج السالكين (١/٥٢٢).

والقبول والامتثال، مع إظهار الافتقار إلىٰ الهداية قبل فعله والإعانة عليه حال فعله، ورجاء قبوله بعد فعله.

ويضاف إلىٰ ذلك ثانياً الاستسلام لحكم الله، الشرعي والقدري فلا يتلقىٰ الحكم الشرعي معارضاً له بهوىً أو شهوة، ولا يتلقىٰ الحكم القدري بكراهة أو اعتراض.

ويضاف إلىٰ ذلك - ثالثاً - انكسار القلب لنظر الرب إلىٰ قلب الإنسان وجوارحه عند تلقيه أمر الله.

الدرجة الثانية: ترقب آفات النفس والعمل، وتوقع ظهورها والخوف علىٰ العمل من هذه الآفات من كبر أو عجب أو رياء أو ضعف في الصدق وقلة في اليقين وتشتت في النية، ويضاف إلىٰ ذلك الحذر من رؤية فضل النفس علىٰ الناس، بل ينسب الفضل كله لله.

الدرجة الثالثة: أن يضبط نفسه عن الإدلال علىٰ الله بالعمل أو الظن بأن لها علىٰ الله حقاً، مع حرصه علىٰ ألا يرىٰ الخلق أحواله مع الخالق، لئلا يعجبه اطلاعهم عليها ورؤيتهم لها فيفسد ذلك عليه قلبه ونيته وحاله[1].

وهذه الدرجات، لا بد من توطين النفس للصعود إليها، وتدريبها علىٰ الترقي فيها - وتظل الصلاة خير مضمار لترويض النفس علىٰ هذه الأعمال، لأن فيها وحدها فرصة التفرغ التام للوقوف بين يدي الله، مع تكرار ذلك آناء الليل وأطراف النهار. فالإنسان يترقىٰ بالنفس في درجات الخشوع، علىٰ قدر حياة وحضور قلبه في ركعات الصلاة.

ولنستمع لتلك النصائح الثمينة، من ابن الجوزي - رحمه الله - وهو يرشدنا إلىٰ خطوات عملية لكيفية تحصيل الخشوع في الصلاة

---

(١) مدارج السالكين (١/٥٢٢ - ٥٢٥) باختصار وتصرف.

يقول: «ينبغي للمصلي أن يحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة.

- فإذا سمع نداء المؤذن، فليمثل النداء للقيامة، ويشمر للإجابة، ولينظر ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر.

- وإذا ستر عورته، فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه، وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق، وليس لها عنه ساتر، وأنها يكفرها الندم والحياء والخوف.

- وإذا استقبل القبلة، فقد صرف وجهه عن الجهات إلىٰ جهة بيت الله تعالىٰ، فصرْف قلبه إلىٰ الله تعالىٰ أولىٰ من ذلك. فكما أنه لا يتوجه إلىٰ جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، كذلك القلب لا ينصرف إلىٰ الله تعالىٰ إلابالانصراف عما سواه.

- إذاكبرت أيها المصلي، فلا يكذبن قلبك لسانك، لأنه لو كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالىٰ فقد كذبت، فاحذر أن يكون الهوىٰ عندك أكبر، بدليل إيثارك موافقته علىٰ طاعة الله تعالىٰ.

- فإذا استعذت، فاعلم أن الاستعاذة هي ملجأ إلىٰ الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغواً. وتفَهَّم معنىٰ ما تتلو، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: «الحمد لله رب العالمين»، واستحضر لطفه عند قولك: «الرحمن الرحيم». وعظمته عند قولك: «مالك يوم الدين» وكذلك في جميع ما تتلو.

- واستشعر في ركوعك التواضع...

- وفي سجودك الذل. لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلىٰ أصله بالسجود علىٰ التراب الذي خُلقت منه.

- وتفهم معنىٰ الأذكار بالذوق.

- واعلم أن أداء الصلاة بهذه الشروط، سبب لجلاء القلب من الصدأ

وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسراره، وما يعقلها إلا العالمون. فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها فإنه لا يطلع على شيء من ذلك، بل ينكر وجوده»[١]

* * *

(١) مختصر منهاج القاصدين (٢٨، ٢٩).

السبب الثامن

الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتادب بادب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

[الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة].

هذا السبب من أبلغ أسباب المحبة، لأنه من أصدق دلائل الأدب في العبودية.

لقد أثنى الله على أهل الليل بقوله: ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [سورة السجدة: ١٦] وقد تلا رسول الله ﷺ، هاتين الآيتين لمعاذ رضي الله عنه في معرض جوابه عن سؤاله: «أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار» فجاء في الحديث قوله ﷺ: (**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل. ثم تلا ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾** حتى بلغ **﴿ يعملون ﴾**)(١).

ولفظ الآية عام في كل عبادة ودعاء في الليل، ولكن النبي ﷺ خص قيام الرجل في جوف الليل، لأن صلاة الليل هي أفضل نوافل الصلاة، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (**أفضل الصلاة بعد الفريضة، صلاة الليل**)(٢).

ولكن هذا لا يمنع دخول العبادات الأخرى في الفضل لعموم لفظ الآية. قال ابن رجب - رحمه الله -: «مدح الله الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لدعائه، فيشمل ذلك كل من ترك النوم بالليل لذكر الله ودعائه، فيدخل فيه من صلى العشائين، ومن انتظر صلاة العشاء فلم ينم حتى يصليها، لا سيما مع حاجته إلى النوم، ومجاهدة نفسه على تركه لأداء الفريضة. وقد قال النبي ﷺ لمن انتظر صلاة العشاء (**إنكم لم تزالوا في**

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٥.

(٢) رواه مسلم. (١١٦٣) (٢/ ٨٢١).

صلاة ما انتظرتم الصلاة)[١] ويدخل فيه من نام ثم قام من نومه بالليل للتهجد، وهو أفضل أنواع التطوع بالصلاة مطلقاً. وربما دخل فيه من ترك النوم عند طلوع الفجر، وقام إلىٰ أداء صلاة الصبح لا سيما مع غلبة النوم عليه»[٢].

إن أصحاب الليل هم بلا شك من أهل المحبة. بل هم من أشرف أهل المحبة، لأن قيامهم في الليل بين يدي الله تعالىٰ يجمع لهم جُلَّ أسباب المحبة التي سبق ذكرها والتي سيأتي ذكرها.

- فهم لا يقرأون القرآن فحسب، بل يقومون به متدبرين خاشعين.
- وهم في قيامهم يتقربون بأقرب النوافل إلىٰ الله.
- وهم في تجافيهم عن المضاجع لذكر الله بالليل، أحرىٰ أن يكونوا ذاكرين له في النهار.
- ومجافاتهم تلك دالة علىٰ إيثارهم لمحاب الله علىٰ محاب أنفسهم.
- وهم في قيامهم يطالعون بقلوبهم أسماء الله وصفاته ويتقلبون في رياضها.
- وهم يتفكرون أثناء تلاوتهم في آلاء الله وآيات بره وإحسانه وإنعامه علىٰ سائر الخليقة.
- ثم إنهم لا يقومون هذا المقام بين يدي الله تعالىٰ في جوف الليل والناس حولهم يغطُّون، إلا وهم منكسرون بقلوبهم له سبحانه.
- وتوفيقهم لهذا القيام؛ توفيق للخلوة بربهم وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه.

فأهل القيام بذلك قد ذهبوا بنحو ثلاثة أرباع أسباب المحبة.

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٦٤٧) (٢ / ١٥٤) ومسلم (٦٤٠) (١ / ٤٤٣) واللفظ له.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢ / ١٤٣).

ولهذا فلا عجب أن يتنزل أمين السماء جبريل عليه السلام على أمين الأرض محمد ﷺ ويقول له: (واعلم أن شرف المؤمن، قيامه بالليل، وعزه.. استغناؤه عن الناس)(١) وإنما كان قيام الليل شرفاً لأصحابه؛ لأنهم يستشرفون به - وهو أشق الطاعات - رضا الله في أشد الساعات، ولهذا فهم يُقلَّدون أوسمة الشرف الإلهي نوراً في القلوب ونوراً في الوجوه ونوراً في الحياة ونوراً في الممات، جزاء طول قيامهم لله في الظلمات.

يقول الحسن البصري - رحمه الله - «لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف الليل»، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره». وقال أبو سليمان الداراني - رحمه الله - «أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا».

وقال الضحاك: «أدركت قوماً يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة»(٢).

فإذا كان هذا شأن القيام ومنزلة القوامين، فلينهض المقصرون والكسالى والمخلِّطون - مثلنا - للحاق بركب الشرف الذي سلكوه، قبل أن ينقطع الطريق وتُغلَق الأبواب.

ومع شدة هذه العبادة، فإن لها - من رحمة الله - ميسرات تذللها، ووصفات تسهلها على النفس الخالدة إلى الراحة الموقوتة العاجلة، والغافلة عن الراحة الأبدية الآجلة.

فإذا أراد أحدنا اللحاق بقافلة المحبين لله المحبوبين من الله، فليعجل إلى مرضاته، وليجعل إخلاص النية وصلاحها أولى خطواته، وليستعن بالله فإن

---

(١) الحديث من رواية سهل بن سعد وجابر بن عبد الله وعلي بن أبي طالب رواه الطبراني في الأوسط (١/٦١/٢) والحاكم (٤/٣٢٤) وصححه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني بمجموع طرقه. انظر السلسلة الصحيحة ح (٨٣١) (٢/٥٠٥).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٦٠، ٦١، ٦٢.

من استعان بالله أعانه.

فاقبل أخي في الله - علىٰ قبول هذه الوصفة من طبيب في علم القلوب حاذق، وعالم رباني ناصح، ينصحني وإياك إلىٰ كيفية حمل النفس علىٰ الجادة في أمر فيه نجاتها وحياتها؛ يقول ابن الجوزي - رحمه الله- : «اعلم أن قيام الليل صعب، إلا من وفق للقيام بشروطه الميسرة له: فمن الأسباب ظاهر، ومنها باطن.

- أما الظاهر: فأن لا يكثر الأكل؛ كان بعضهم يقول: يا معشرالمريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتناموا كثيراً فتخسروا كثيراً.

- ومنها: أن لا يُتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة.

- ومنها: أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها تعين علىٰ قيام الليل.

- ومنها: - وهو الباطن - أن يجتنب الأوزار. قال الثوري: «حُرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أصبته».

وأما الميسرات:

- فمنها: سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الدنيا.

- ومنها: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل.

- ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل.

- ومن أشرف البواعث علىٰ ذلك الحب لله تعالىٰ، وقوة الإيمان بأنه إذا قام ناجىٰ ربه، وأنه حاضره ومشاهده، فتحمله المناجاة علىٰ طول القيام»(١).

وإذا كان قيام الليل هو شرف المؤمن،فإن أهله في هذا الشرف درجات

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٦١

فانظر حالك - رحمني الله وإياك - في أي مراتب الشرف أنت؟ فإذا وجدت نفسك في أعلاها فاحمد الله، وإذا رأيت نفسك في وسطها فاستعن بالله، وإذا رأيت نفسك في أدناها فاستغفر الله... وإذا رأيت نفسك خارج تلك المراتب كلها فاسترجع وقل: لا حول ولا قوة إلا بالله!

يقول ابن الجوزي - رحمه الله -: «إحياء الليل على مراتب:

أحدها: أن يحيى الليل كله، روى ذلك عن جماعة من السلف.

الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهو مروي أيضاً عن جماعة من السلف وأحسن الطريق في هذا أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير، وهو قيام داود عليه السلام ففي الصحيحين: (أحب الصلاة إلي الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود. وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً)(١) ونوم آخر الليل أحسن لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة ويقلل صفرته.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه، والأفضل من ذلك ما كان في النصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله: السدس الأخير.

المرتبة الخامسة: أن لايراعي التقدير، فإن مراعاة ذلك صعب.

ثم فيما يفعله طريقان:

أحدهما: أن يقوم أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا انتبه قام،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣١) (٣/ ٢٠) ومسلم (١٨٩، ١٩٠) (٢/ ٨١٦). واللفظ للبخاري.

فـاذا غلبـه النـوم نام، وهذا من أشـد المكـابدة، وهو طريق جـمـاعـة من السـلف.

الطريق الثاني: ان ينام أول الليل، فإذا أخذ حظه من النوم وانتبه قام الباقي.

المرتبة السادسة: ان يقوم مقدار اربع ركعات او ركعتين، فقد روينا عن النبي ﷺ وآله وسلم انه قـال: (صلوا من الليل ولو أربعـاً ولو ركعتين) الحديث(١).

وفي سنن أبي داود قال رسول الله ﷺ: (من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعاً ركعتين، كُتِبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات)(٢)...

فهذه طرق قسمة الليل، فليتخير العبد لنفسه ما يسهل عليه، فإن صعب القيام عليه وسط الليل، فلا ينبغي أن يخل بإحياء ما بين العشائين، وورد السحر، ليكون قائماً في الطرفين. وهذه مرتبة سابعة»(٣).

وأقول... فإن لم يكن له حظ من المحافظة على هذا ولاذاك، فليحافظ على صلاة الضحى، فإنها تقوم في النهار مقام القيام في الليل، وقد نصح النبي ﷺ أباهريرة بصلاة الضحى - كما سبق ذكر ذلك في السبب

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ح (٢٩٤٥) (٦/ ٤١٥) وهو مرسل عن الحسن وبقيته: (ما من أهل بيت تعرف لهم صلاة بالليل إلا ناداهم منادٍ، يا أهل البيت قوموا لصلاتكم).

(٢) اخرجه ابو داود (١٣٠٩) (٢/ ٧٤) وابن ماجة (١٣٣٥) (١/ ٤٢٣)، وصححه الالباني في صحيح سنن ابن ماجة ح (١٠٩٨) (١/ ٢٢٣).

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ٦١، ٦٢ باختصار.

الثاني[١] لأنه كان ينشغل في الليل بدرس الحديث.

أما ختم قيام الليل بالاستغفار والتوبة فهذا شأن من أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨] أي: كانوا في الدنيا محسنين في العمل، وذلك أنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعونه وكانوا يصلون ويؤخرون الاستغفار إلىٰ السحر قال ابن عباس: «لم تكن تمضي عليهم ليلة لا يأخذون منها ولو شيئاً». وقال مجاهد: «قلَّ ما يرقدون ليلة حتىٰ الصباح لا يتهجدون»[٢]، وهذا علىٰ أحد التفسيرين في الآية، أو أنهم كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم. قال الحسن البصري «كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلىٰ السَّحر حتىٰ كان الاستغفار بالسحر»[٣].

والظاهر أن رتبة المداومة علىٰ هذا العمل - أعني نوم القليل من الليل مع وصل القيام حتىٰ الاستغفار في السحر، ثم وصل ذلك بصلاة الفجر وما بعدها من الذكر - الظاهر أن هذه الرتبة قد مضت لأهلها منذ زمن بعيد، ولكن لعل الله عز وجل، بعظيم لطفه ورحمته، يتقبل جهد من دونهم وينميه لهم. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال رجل من بني تميم لأبي: «يا أبا أسامة: صفة لا أجدها فينا..! ذكر الله قوماً فقال: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ ونحن قليلاً من الليل ما نقوم». فقال له أبي: «طوبىٰ لمن رقد إذا نعس، واتقىٰ الله إذا استيقظ»[٤].

---

(١) سبق تخريجه ص (٤١).

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٦/ ١٩٧).

(٣) المصدر السابق ص٢٠٠.

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٤).

إن من يوفقه الله إلىٰ شهود آخر الليل قائماً ومستغفراً قد وُفق لشهود عظيم كريم، فرسول الله ﷺ يقول (**يتنزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**)(١).

فمن وفق للقيام بين يدي الله عز وجل في هذا الوقت الشريف، فذاك الشرف، ومن لا، فلا أقل من أن يكون من المستغفرين في هذا الوقت. فالله تعالىٰ يذكر في عباده الصالحين من وصفهم بقوله: ﴿**والمستغفرين بالأسحار**﴾ [آل عمران: ١٧] فهم يقضون هذه اللحظات في طاعة مستغفرين ولكن الاستغفار إذا كان مع طاعة من الطاعات كان أدعىٰ للقبول، والصلاة أحسن الطاعات، ولهذا قال العلماء: كلما كان هذا الاستغفار في صلاة فهو أحسن(٢).

وإذا كان الاستغفار فضيلة في كل الأوقات، فهو في أوقات السحر أفضل، سواء كان للنفس أو للغير.

وقد ورد أن يعقوب عليه السلام عندما قال لبنيه ﴿**سوف أستغفر لكم ربي**﴾ [سورة يوسف : ٨] أنه أخرهم إلىٰ السحر(٣).

وقد تنوعت عبارات المفسرين واجتهاداتهم في تبيين الأسرار والفوائد التي من أجلها كان الاستغفار بالأسحار فضيلة ومكرمة، استحق أهلها أن يثني الله تعالىٰ عليهم في كتابه. فذكروا من ذلك ما يلي:

أ- إنه الوقت الذي يتنزل فيه رب العزة - كما صح في الحديث -

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٩٤) فتح الباري (١٣/ ٤٧٣) وأخرجه مسلم (١٦٨) (١/ ٥٢١).

(٢) تفسيرابن كثير (٧/ ٣٩٥).

(٣) تفسير الطبري. الأثر: (١٩٨٧٠) ١٦/ ٢٦١. وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٤).

فيقول سبحانه: (من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فاغفر له)(١).

وقد ذهب ابن كثير - رحمه الله - إلىٰ أن هذا من أسرار فضيلة ذلك الوقت واستشهد بالحديث السابق عليه، وذلك عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ [سورة آل عمران: ١٧](٢).

ب- إن العبادة أشق علىٰ النفس في ذلك الوقت، ولا يقدر عليها عندئذ إلا أهل الإخلاص. وإذا كان الجزاء دائماً علىٰ قدر المشقة - ما دام قد استوفىٰ الشروط - فإن الذي يقوم لله في هذا الوقت، حيث الناس في راحتهم وسباتهم، هو لاشك صاحب فضل وأجر عظيم.

قال أبو السعود: «وتخصيص الأسحار بالاستغفار، لأن الدعاء فيها أقرب إلىٰ الإجابة، إذ العبادة حينئذ أشق، والنفس أصفىٰ والروع أجمع، ولا سيما للمجتهدين»(٣). وهذا هو وقت الغفلة ولذة النوم، فحرص العبد علي حضوره يقظاً مستغفراً تائباً، يدل علىٰ يقظته وإقباله. قال القاسمي - رحمه الله - «الحكمة في تخصيص الأسحار؛ كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية والألطاف السبحانية، وعند ذلك تكون العبادة أشق والنية خالصة والرغبة وافرة، مع قربه تعالىٰ وتقدس من عباده»(٤).

وقد روي عن الحسن، أن لقمان قال لابنه: «يا بني: لا تكن أعجز من

---

(١) راجع الهامش الأول في الصفحة السابقة.

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٣).

(٣) تفسير أبي السعود، المسمىٰ: إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم (٢/ ١٦).

(٤) محاسن التأويل - للقاسمي - (٤/ ٨٠٩).

هذا الديك، يصوت من الأسحار، وأنت نائم على فراشك»(١).

جـ- ومما يلتحق بالفائدة السابقة أن هذا الوقت، وقت صفاء النفس وانقطاعها من شواغل الحياة.

قال سيد قطب - رحمه الله - ... والاستغفار بالأسحار بعد هذا كله يلقي ظلالاً رفافة ندية عميقة... ولفظة (الأسحار) بذاتها ترسم ظلال هذه الفترة من الليل قبيل الفجر، الفترة التي يصفو فيها الجو ويرق ويسكن، وتترقرق فيها خواطر النفس وخوالجها الحبيسة، فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار، ألقت تلك الظلال المنسابة في عالم النفس وفي ضمير الوجود سواء، وتلاقت روح الإنسان وروح الكون في الاتجاه لبارئ الكون، وبارئ الإنسان»(٢).

د- ومن حكم الاستغفار في هذا الوقت أيضاً، أنه يعقب وقت جهد في طاعة - هي قيام الليل - فكان تقديم الثناء لله تعالى على التوفيق لهذه الطاعة وطلب قبولها والاستغفار مما قد يبدر فيها من تقصير أو شوائب .. كان تقديم هذا مناسباً في هذا الوقت بعينه. قال الرازي: ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون، يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه، ويستغفرون من التقصير. وهذه سيرة الكريم، يأتي بأبلغ وجوه الكرم، ويستقله، ويعتذر من التقصير»(٣).

وإذا كان الاستغفار من قبيل الاستغفار العام، دون ملاحظة ما قد يشوب الطاعة السابقة من تقصير، فيكون هذا الدعاء بالاستغفار مناسباً

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره. انظر معالم التنزيل (٢/ ١٧) تحقيق عثمان ضميرية وآخرون. طبعة دار طيبة.

(٢) في ظلال القرآن - تأليف سيد قطب (١/ ٣٧٦) دار الشروق.

(٣) التفسير الكبير للرازي (٢٨/ ٢٠٣).

في هذا الوقت أيضاً، لأنه مسبوق بالطاعة والعبادة التي تفتح الباب لتلبية الحاجات. ويكون قيام الليل كالتقدمة بين يدي الطلب والمناجاة والتضرع بين يدي الكريم المنان سبحانه(١).

* * *

(١) راجع بتوسع مبحث الاستغفار وآدابه في رسالة الماجستير بعنوان «التوبة والاستغفار في القرآن الكريم» إعداد الأخ / بهاء الدين عقيل (تحت الطبع).

السبب التاسع

مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

[مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك].

هنا جعل ابن القيم – رحمه الله – محبة المحبين الصادقين ومجالستهم، من موجبات محبة الله، ولاعجب في هذا، فإن البشرىٰ بذلك قد زُفت إلىٰ أهل المحبة عبر وحي يوحىٰ. قال رسول الله ﷺ: (قال الله عز وجل: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، ووجبت محبتي للمتجالسين فيَّ ووجبت محبتي للمتزاورين فيَّ)(١).

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ (أن رجلاً زار، أخاً له في قرية أخرىٰ، فأرصد الله تعالىٰ علىٰ مدرجته(٢) مَلَكاً، فلما أتىٰ عليه قال أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي. قال هل لك من نعمة تربُّها عليه(٣)؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالىٰ. قال: إني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)(٤).

فمحبة المسلم لأخيه في الله، ثمرة لصدق الإيمان وحسن الخلق. وهي سياج واقٍ، يحفظ الله به قلب العبد، ويشد فيه الإيمان حتىٰ لا يتفلت أو يضعف. قال ﷺ: (أوثق عُرىٰ الإيمان: أن تحب في الله، وتبغض في الله)(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٨٦)، (٥/٢٢٩) ومالك في الموطأ في كتاب الشعر ح (١٦) (٢/٩٥٣) وصححه الألباني. انظر مشكاة المصابيح (٣/١٣٩٥) ح (٥٠١١).

(٢) المدرجة: الطريق.

(٣) تربها: أي تقوم بإصلاحها وتنهض بسببها.

(٤) أخرجه مسلم (٣٨) (٤/١٩٨٨).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٥٣٧) وابن أبي شيبة في الإيمان (١١٠) =

والذين يُختارون للصحبة، ، ويُنتخبون للمحبة ينبغي أن تتحقق من صحبتهم أغراض تنفع المرء في دينه ودنياه وآخرته، ولهذا كان اختيارهم من المهام الصعاب التي تحتاج إلىٰ توفيق، ولا يصلح للمرء الفطن أن يصادق كل من يصادف، فإن الإنسان مؤثر متأثر، وقد يسوقه سوء اختياره للصديق إلىٰ مصير من الخسران والقلق قريب من مصير من يسيء اختيار الوظيفة أو الحليلة أو الجوار...

يقول ابن حجر - رحمه الله - «ولا ينبغي للمرء أن يهمل اختيار من يصلح للصحبة لأن للصحبة تأثيرها البالغ علىٰ المرء ورسول الله ﷺ يقول: (الرجل علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[١].

ويقول ابن الجوزي - رحمه الله - « ينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً،حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص علىٰ الدنيا...

أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق ،لأنه يريد أن ينفعك فيضرك، ونعني بالعاقل: الذي يفهم الأمور علىٰ ما هي عليه، إما بنفسه، وإماأن يكون بحيث إذا أُفهم فهِم.

وأما حسن الخلق، فلابد منه، إذ رب عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه، فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق، فإنه لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله تعالىٰ، لا تؤُمن غائلته ولا يُوثق به.

- وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٨).

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣) (٥/ ١٦٨)، والترمذي (٢٣٧٩) (٧/ ١١١) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٤٦) (٣/ ٩١٧).

وأما المبتدع، فيُخاف من صحبته بسراية بدعته(١).

وأما الحريص على الدنيا فإن واجب المؤمن أن يتجنب عشرة طلاب الدنيا، فإنهم يدلونه على طلبها وجمعها ومنعها وذاك الذي يبعده عن طلب نجاته ويقطعه عنها. ويجتهد في صحبة أهل الخير ومن يدله على طلب الآخرة.

ومن اجتمعت فيه تلك الخصال، فإن صحبته لا ينتفع بها في الدنيا فحسب، بل يرتفع بها في الآخرة. وعلى هذا يحمل كلام بعض السلف: «استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة»(٢).

وهذا القول يستأنس له بالحديث الذي فيه ذكر الشفاعة، والذي فيه قوله ﷺ: (فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار...) الحديث(٣).

فقد تنزل الكارثة بعبد في الآخرة بدخوله النار لتفريطه، فلا يخرج منها إلا بصاحب مؤمن اتخذه في الدنيا، يقبل الله شفاعته فيه! قال ﷺ: (إذا خلّص الله المؤمنين من النار وأمنوا، فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا، أشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار، قال: يقولون: ربنا.. إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا ويحجون معنا فأدخلتهم النار! فيقول: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم، فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، لا تأكل النار صورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم، فيقولون: ربنا.. أخرجنا من قد أمرتنا، ثم يقول:

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٩١، ٩٢.

(٢) المصدر السابق ص٩١.

(٣) رواه البخاري (٧٤٣٩) فتح الباري (١٣/ ٤٣١) ورواه مسلم (٣٠٢) (١/ ١٦٧).

أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان، ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار، ثم من كان في قلبه مثقال حبة من خرد)(١).

هذا إلىٰ جانب المنافع العظيمة بصحبة المحبين المخلصين في الدنيا.

يقول عمربن الخطاب رضي الله عنه: «عليك بإخوان الصدق، تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعُدة في البلاء. وضع أمر أخيك علىٰ أحسنه حتىٰ يجيئك مايقليك منه. واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين. ولا أمين إلا من يخشىٰ الله. ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولاتطلعه علىٰ سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالىٰ»(٢).

وقد عدَّ ابن القيم - رحمه الله - منافع أخرىٰ اعتقادية وتربوية وأخلاقية تستفاد من مجالسة أهل المحبة والصدق فقال:

ذكر العلماء من منافع مجالستهم ست خصال:

- أنها تنقل من الشك إلىٰ اليقين.
- ومن الرياء إلىٰ الإخلاص.
- ومن الغفلة إلىٰ الذكر.
- ومن الرغبة في الدنيا إلىٰ الرغبة في الآخرة.
- ومن الكبر إلىٰ التواضع.
- ومن سوء الطوية إلىٰ النصيحة.

وإذا كانت مجالس المحبين مندوب إليها، مرغب فيها، فإن خيار تلك المجالس هي مجالس خيارالمحبين، وأعني بهم أهل العلم والعمل، فمجالس

---

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة (٦٠) (١/ ٢٣) وصححه الالباني في صحيح ابن ماجة ح (٥١) (١/ ١٦).

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٢٠).

العلماء، هي أكثر الرياض والبساتين مظنة لا لتقاط أطايب ثمرات الكلام. ففيها يُنال العلم، ومنها يُبتغىٰ الأدب والحكمة. وعلىٰ الحاضر فيها أن يراعي آداباً وسلوكاً يجمل بمريد التعلم أن ينتبه لها.

وإن للتعلم ست مراتب: أولها: حسن السؤال. ثانيها: حسن الإنصات والاستماع. ثالثها: حسن الفهم. رابعها: الحفظ. خامسها: التعليم. سادسها، وهي الثمرة: العمل به ومراعاة حدوده.

وحرمان العلم يكون بستة أوجه: أحدها: ترك السؤال. الثاني: سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع. الثالث: سوء الفهم. الرابع: عدم الحفظ. الخامس: عدم نشره وتعليمه، فمن خزن علمه ولم ينشره، ابتلاه الله بنسيانه جزاء وفاقاً. السادس: عدم العمل به، فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره، ومراعاته والنظر فيه، فإذا أهمل العمل به نسيه.

قال بعض السلف: كنا نستعين علىٰ حفظ العلم بالعمل به. وقال بعضهم: العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل. فما استدر العلم واستجلب بمثل العمل به[١].

لقد كان السلف يعدُّون الأخوة في الله نعمة، ويرون أن لها شكراً خاصاً من العمل، هوالمحافظة عليها، ومالهم لا يرون ذلك كذلك والله تعالىٰ يقول ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

فامتن الله علىٰ المؤمنين بنعمة الأخوة في كتابه المنزل، وذكرها مرتين في هذه الآية، ولهذا جعل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - نعمة مصاحبة الصالحين ومجالستهم إحدىٰ ثلاث نعم كبار، لولاها ما أحب البقاء في الدنيا. قال رضي الله عنه: «لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله، لولا أن أضع جبهتي لله، أو أجلس في مجالس يُنتقىٰ فيها طيب الكلام كما

(١) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب. للسفاريني (١/٤٣، ٤٤).

ينتقي جيد الثمر، أو أن أسير في سبيل الله عز وجل»(١).

وقد نقل الإمام النووي - رحمه الله - عن الزاهد العابد: ابراهيم الخواص أنه قال: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين»(٢).

وإذا كان المرء يتفقد في مجالس المحبين الصادقين سبلاً إلى الفوز والنجاة، فإن من سبل النجاة أن يحسن الإنصات رجاء الفائدة في الوقت الذي يحكم فيه الصمات عند عدم رجائها، وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: (**من صمت نجا**)(٣). فعندما لا تترجح مصلحة الكلام؛ ففي الصمت تكون المصلحة. وأي مصلحة للعبد ترجى أفضل من نجاة من النار؟

إن النار يتقحمها الذين لا يحسنون الصمت في المواطن التي يجمل بالإنسان أن يصمت فيها. قال رسول الله ﷺ: (**إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**)(٤).

ولكن، كيف يعرف العبد وجود المصلحة في كلامه من عدمها..؟

الجواب حاضر، في حديث أم حبيبة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: (**كلام ابن آدم عليه، لا له، إلا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذكر الله عز وجل**)(٥).

---

(١) حلية الأولياء (١/٥١).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ص٤٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥٠٣) (٧/١٩٢)، وأحمد (٢/١٥٩، ١٧٧)، والدارمي (٢/٢٩٩) وصححه الألباني في الصحيحة (٥٣٦) (٢/٦٢).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٧٨) فتح الباري (١١/٣١٤).
وأخرجه مسلم (٥٠) (٢٢٩٠٤) واللفظ له.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الصمت) (٦٠) (٦٥٣).

فحول هذه الثلاث يدور كلام أهل الإيمان،لأن إيمانهم يقتضيهم أن يقولوا الخير، وأن يصمتوا ويسكتوا إذا لم يرجَ من الكلام خير. فهم بذلك يُجنون الصلاح ثمرة طيبة في الدنيا والآخرة. قال يونس بن عبيد: «ما رأيت أحداً لسانه منه علىٰ بالٍ، إلا رأيت ذلك صلاحاً في سائر عمله»(١) وقال يحيىٰ بن أبي كثير «ما صلح منطق رجل، إلا عرفت ذلك في سائر عمله ولافسد منطق رجل قط، إلا عرفت ذلك في سائر عمله»(٢).

فانظر كيف ارتبط المنطق بالمعتقد، فكان الإيمان باعث المؤمن علىٰ أن يتكلم أولا يتكلم!

ولن تجد أمة يحكم كلامها وصمتها شرع محكم، إلا اتباع هذا الدين العظيم. قال ابن رجب الحنبلي: «قوله: (**فليقل خيراً أو ليصمت**) أمر بقول الخير، وبالصمت عماعداه، وهذا يدل علىٰ أنه ليس هناك كلام يستوي قوله والصمت عنه، بل إماأن يكون خيراً فيكون مأموراً به، وإما أن يكون غيرخير فيكون مأموراً بالصمت عنه»(٣).

وخيرية الكلام تتضح صفتها من نصيحة ابن القيم في كلامه عن السبب التاسع الذي نحن بصدده «ولاتتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداًلحالك ومنفعة لغيرك».

وهذا يحتاج إلىٰ حس مرهف، وشعور يقظ، لأن سيف اللسان إذا لم يوضع في غمده، فإنه يطيش رهقاً فيما حوله، وربما أتلف صاحبه.

قال الحارث المحاسبي – رحمه الله – «خَفْ يا أخي من لسانك، أشد

---

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٦٨).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/٣٣٦).

من خوفك من السبع الضاري القريب المتمكن من أخذك، فإن قتيل السبع من أهل الإيمان ثوابه الجنة، وقتيل اللسان عقوبته النار إلا أن يعفو الله، فإياك يا أخي والغفلة عن اللسان، فإنه سبع ضارٍ، وأول فريسته صاحبه. فاغلق باب الكلام من نفسك بغلق وثيق، ثم لا تفتحه إلا فيما لابد لك منه، فإذا فتحته فاحذر، وخذ من الكلام حاجتك التي لا بد لك منها وأغلق الباب. وإياك والغفلة عن ذلك والتمادي في الحديث وأن يستمد بك الكلام فتهلك نفسك»[١].

وتزداد ضرورة حبس اللسان في مواضع الخلطة، ومواطن التهمة، وأزمنة الفتن، حيث يكون مع الصمت النجاة ويوكل البلاء بالمنطق. قال رجل للنبي ﷺ: ما النجاة؟ قال: (**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك**)[٢]. وقال له رجل: ما أخوف ماتخاف عليَّ؟ فقال: (**هذا، وأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه**)[٣].

قال ابن رجب «فمن هنا يُعلم، أن ماليس بخير من الكلام، فالسكوت عنه أفضل من التكلم به، اللهم إلا ما تدعو إليه الحاجة مما لابد منه، وقد روي عن ابن مسعود قال: «إياكم وفضول الكلام، حسب امرئ من الكلام ما بلغ حاجته» ، وعن النخعي قال: «يهلك الناس في فضول المال والكلام». وأيضاً فإن الإكثار من الكلام الذي لا حاجة إليه يوجب قساوة القلب، كما في الترمذي من حديث ابن عمر مرفوعاً (**لاتكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله يقسي القلب وإن أبعد**

---

(١) آداب النفوس لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ص٣٦.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٨) (٧/١٢٨) وقال: حديث صحيح حسن. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٦١) (٢/٢٨٧).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه (٢/١٥٣) والترمذي في الأدب (٤٨٥).

الناس عن الله: القلب القاسي)(١).

لا جرم أن المتحابين في الله والمتزاورين فيه، والمتباذلين فيه، والمتجالسين فيه، هم أولياء الله، وهم أحباؤه وأصفياؤه وكيف لا؟ وهم المغتبطون في ملأ السماء، لما كان بينهم من تحاب في الله وهم على الأرض.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال رسول الله ﷺ: (**إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله عز وجل**).

قالوا يا رسول الله: من هم..؟

قال: (**هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فو الله، إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. ثم تلا هذه الآية. ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** [سورة يونس: ٦٢])(٢).

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٣) (٧/١٣٠) وقال: حسن غريب.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩١) (٧/١١٩) ورواه أبو داود (٣٥٢٧) وابن حبان (٥٧٣) ورواه أبو نعيم في الحلية (١/٥) وصححه الألباني في المشكاة (٥٠١٢) (٣/١٣٩٦).

السبب العاشر

مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

[مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل].

لاخيار للإنسان - إذا اراد محبة الله - في ان يسعىٰ للمحافظة علىٰ قلبه سليماً من كل آفة وعيب وفساد ينافي ما يحبه الله.

فالقلب إذا فسد فلن يجد المرء فائدة فيما يصلحه من شئون دنياه، ولن يجد نفعاً او كسباً في اخراه. قال تعالىٰ: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتىٰ الله بقلب سليم﴾ [سورة الشعراء: ٨٨].

ورسول الله ﷺ، كان يقول في دعائه: (وأسألك قلباً سليماً)(١).

ولابد لكي يظل القلب سليماً معافاً من تحليته بامور وتخليته عن امور. فمن الأمور التي ينبغي أن يظل متحلياً بها؛ أن يظل مستشعراً معاني الإيمان العظمىٰ، ومستحضراً حقائقه الكبرىٰ. ومحمد بن سيرين - رحمه الله - يذكر لنا تلك المعاني التي يظل بها القلب حياً، ويصدق عليه بها وصف السلامة؛ يقول: «القلب السليم ان يعلم ان الله حق، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور»(٢). ولا نظن، ان قلباً تظل هذه المعاني حاضرة فيه يمكن أن تتسرب إليه آفة من علة أو مرض. فمن عرف الله حق المعرفة وايقن بالآخرة وعمل لما بعد الموت، فإنه صاحب قلب سليم لامحالة. وإنما يبدا تسرب الامراض إلىٰ القلب من تفلت هذه الحقائق أو بعضها منه، فعند ذلك لا يعود سليماً بل يكون قلباً مريضاً إما بالشهوات او بالشبهات او بهما معاً، وتلك حال قلب المنافق. قال سعيد بن المسيب - ررحمه الله -: «القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن لان قلب المنافق مريض. قال الله ﴿في قلوبهم مرض﴾ [سورة البقرة: ١٠]»(٣).

(١) اخرجه الترمذي (٤٠٠٤) (٩/ ١١٢) والنسائي في كتاب السهو/ ٦١. واخرجه احمد في مسنده (٤٠/ ١٢٣، ١٢٥).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٥٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ١٥٩).

ويقول ابن رجب الحنبلي – رحمه الله –: «القلب السليم هو السالم من الآفات والمكروهات كلها»(١).

أما ابن تيمية – رحمه الله – فله اختيار جامع في معنى القلب السليم يقول: «هو السليم مما سوى الله، أومما سوى عبادة الله، أو مما سوى إرادة الله، أو مما سوى محبة الله»(٢).

ولعل هذا أقرب ما يعبر عن مراد ابن القيم في قوله: «مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله».

وإنما يباعد من الله كل طريق يوصل إلى باب من تلك الأبواب الثلاثة:

– باب شبهة أورثت شكاً في دين الله.

– وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ورضاه.

– وباب غضب يورث العدوان على خلق الله(٣).

فالشبهات طريق لمخالفات الاعتقاد. والشهوات طريق لمخالفات الجوارح، والغضب – مع قرينه الحسد – طريق لمخالفات الطباع. ومن هذه الأبواب الثلاثة، تلج كل الذنوب والمعاصي المفسدة للقلوب، وهي ترجع في أصولها إلى ثلاثة:

– تعلق القلب بغير الله، وغايته الشرك ودعاء غير الله.

– وطاعة النفس في الغضب، وغايته القتل.

– وطاعة النفس في الشهوة، وغايته: الزنا.

وقد جمع الله سبحانه تلك الثلاثة في سلك واحد، ونزه عباده

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢ / ٢١١).

(٢) مجموع الفتاوى.

(٣) انظر: الفوائد لابن القيم ص٥٨.

أصحاب القلوب السليمة عنها، فقال في صفة عباد الرحمن: ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق أثاماً** ﴾ [سورة الفرقان: ٦٨] وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يتحاشون هذه المفسدات من الذنوب، ويسالون عن كبارها واصولها، ليجعلوا بينهم وبينها حاجزاً من التقوىٰ. فقد كانوا يعلمون ان الذنوب جراح، ورب جرح أصاب من القلب مقتلاً. قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: سالت رسول الله ﷺ: اي الذنب اعظم؟ فقال: (**أن تجعل لله نداً وقد خلقك. قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك قلت: ثم أي قال: أن تزاني حليلة جارك**)(١).

وقد ذكر الرسول ﷺ في ذلك الحديث اصول الذنوب الثلاثة المذكورة - في الآية، ولكنه نص علىٰ اقبح صورها. لأن السائل ساله عن اي الذنوب أعظم، فذكر له كبار كبارها وابرز اصنافها. فليس معنىٰ ذلك ان تلك الثلاثة هي الكبائر فحسب وإنما الكبائر كثيرة، واكبرها سبع وهي المذكورة في قوله ﷺ: (**اجتنبوا السبع الموبقات**) قالوا: يارسول الله وماهن؟ قال: (**الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**)(٢).

ولكل من تلك الذنوب تاثيرها القاتل في القلب، فهي لا تزال تفري فيه وتمرضه، وربما تميته والعياذ بالله، كما قال عبد الله بن المبارك - رحمه

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧). فتح الباري (٨/١٣) ورواه مسلم (١٤١)، (١٤٢) (١/٩٠، ٩١).

(٢) اخرجه البخاري (٢٧٦٦) الفتح (٥/٤٦٢) واخرجه مسلم (١٤٤) (١/٩١).

الله -:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

إن في النفس البشرية ركائز من الضعف هي التي تستدعي الخطايا وتدفع إلىٰ العصيان، فعلىٰ المرء أن يحذرها في نفسه، ويرقب تأثيرها في قلبه، فمنها تنبع كل الآثام وتنبعث كل الذنوب، وهذه الركائز ثلاثة: الكبر، والحرص، والحسد.

والكبر هو أول ذنب عُصي الله تعالىٰ به. وكان العاصي إبليس - لعنه الله - قال تعالىٰ ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

والحرص كان سبباً في أول ذنوب البشر. فمنه نفذ إبليس إلىٰ آدم وحواء عليهما السلام للإغواء.

﴿ قال يا آدم هل أدلك علىٰ شجرة الخلد وملك لايبلىٰ فأكلا منها... ﴾ [سورة طه: ١٢٠].

أما الحسد، فكان سبباً في معصية ابن آدم الأول. قال تعالىٰ: ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم، بالحق إذ قربا قرباناً فتُقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنك، قال إنما يتقبل الله من المتقين ﴾

[سورة المائدة: ٢٧].

فالذنوب الثلاثة الأول في تاريخ المكلفين كان دافعها تلك الأصول الثلاثة للخطايا. فعلىٰ العاقل الحريص علىٰ النجاة أن يتفقد مواقع هذه الثلاثة في قلبه ليعالجها ويداويها ويكوي آثارها أولاً بأول. وعليه أن يبغضها ويبغض وجودها في نفسه أو في من يحب. فمن فعل ذلك فهو الراشد الموفق الذي أحبه الله فحبّب إليه الإيمان وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان. كما قال تعالىٰ: ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في

قلوبكم، وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون﴾ [سورة الحجرات: ٧].

والمقصود، أن واجب مريد المحبة أن يباعد كل تلك المفسدات التي تحول بينه وبين محبة الله، ويتلمس مواضع العيوب في نفسه أو يتعرفها من غيره ليعالج قلبه ويحتفظ به قلباً سليماً.

فالتوفيق كل التوفيق، أن يقدِّر الله للعبد بصراً بعيوب نفسه وييسر له انصرافاً عن عيوب غيره، ففي عيوب النفس مشغلة عن عيوب الغير، تتطلب من العبد أن يتتبعها بنفسه، وإن لم يمكنه استعان بغيره من أهل النصيحة والإخلاص والوفاء.

يقول ابن الجوزي - رحمه الله -: «اعلم أن الله تعالىٰ إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه فمن كانت له بصيرة لم تخف عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج. ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرىٰ أحدهم القذىٰ في عين أخيه ولا يرىٰ الجذع في عينه. فمن أراد الوقوف علىٰ عيب نفسه، فله في ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولىٰ: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرِّفه عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عزَّ في هذا الزمان وجوده[١]، فمن وقع به ، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً علىٰ نفسه لينبهه علىٰ المكروه من أخلاقه وأفعاله. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: رحم الله امرءاً أهدىٰ إلينا عيوبنا[٢]...

---

(١) الزمان الذي يتحدث عنه ابن الجوزي هو القرن السادس الهجري، في آخره فكيف بزماننا...!

(٢) أورده الدارمي في مقدمة سننه (١/ ١٦٩).

وقد كان السلف يحبون من ينبههم إلىٰ عيوبهم، ونحن الآن – في الغالب – أبغض الناس إلينا من يعرّفنا بعيوبنا. وهذا دليل علىٰ ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب، ولو أن منبهاً نبهنا علىٰ أن تحت ثوب أحدنا عقرباً، لتقلدنا له منّةً. واشتغلنا بقتلها. والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب علىٰ مالا يخفى.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوئ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عيوبه.

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم يجتنبه(١).

هذا... وسلامة القلب من العلل والآفات، تتطلب تطبيبه مما قد يعتريه منها، وتتطلب قبل ذلك حمية ووقاية، فإنها خير من العلاج. وتتطلب السلامة والصحة كذلك غذاءً منتظماً نافعاً تدوم به للقلب العافية. يقول ابن تيمية – رحمه الله –: «الصحة تحفظ بالمثل والمرض يدفع بالضد فصحة القلب بالإيمان تحفظ، وهو ما يورث القلب إيماناً من العلم النافع والعمل الصالح، فتلك أغذية له. كما في حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً: (إن كل آدبٍ يحب أن تؤتىٰ مادبته، وإن مادبة الله هي القرآن). والآدب المضيف، فالقرآن ضيافة الله لعباده(٢). وعدَّ ابن تيمية بعد ذلك أغذية أخرىٰ نافعة، وأدوية ناجعة ينبغي لمبتغي القلب السليم أن يراعي اغتنامها: «مثل آخر الليل وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده وفي أدبار الصلوات. ويضم إلىٰ ذلك الاستغفار، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص١٤٧ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/١٣٦).

متاعاً حسناً إلىٰ أجل مسمىٰ.

وليتخذ ورداً من الأذكار في النهار ووقت النوم، وليصبر علىٰ ما يعرض له من الموانع والصوارف فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه. وليحرص علىٰ إكمال الفرائض من الصلوات الخمس، باطنة وظاهرة، فإنها عمود الدين، وليكن هِجِّيراه(١): لا حول ولا قوة إلا بالله. فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال، ولا يسأم من الدعاء والطلب فإن العبد يستجاب له مالم يعجل فيقول: قد دعوت دعوت فلم يُستجب لي. وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج من الكرب، وأن مع العسر يسراً ولم ينل أحد شيئاً من ختم الخير - نبي فمن دونه - إلا بالصبر»(٢).

ويعدِّد ابن تيمية - رحمه الله - في موضع آخر الآثار التي تبدو علىٰ من التزم أعمال سلامة القلوب فيقول:

«... والمشائخ الصالحون - رضي الله عنهم - يذكرون شيئاً من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله، بحيث لا يكون العبد ملتفتاً إلىٰ غير الله ولا ناظراً إلىٰ ما سواه: لا حباً له(٣)، ولا خوفاً منه ولا رجاءً له، بل يكون القلب فارغاً من المخلوقات خالياً منها، لا ينظر إليها إلا بنور الله، فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يمشي، فيحب منها مايحبه الله، ويبغض منها مايبغضه الله، ويوالي منها ماوالاه الله ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف الله فيها ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها ولا يرجوها في الله، فهذا هوالقلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن العارف المحقق

---

(١) هِجِّيراهُ: دابه وشانه. انظر لسان العرب مادة هجر (٦/ ٤٦١٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٣٧).

(٣) أي ما سوىٰ الله.

الموحد»(١).

اللَّهم إنا نسألك قلباً سليماً حنيفاً موحداً مسلماً مؤمناً عارفاً محققاً موحداً.

وارزقنا حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يقربنا إلىٰ حبك.. آمين

وصل اللَّهم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٢٣).

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة..................	٥
السبب الأول:	
[قراءة القرآن بالتدبر والتفهم...]	١١
محبة القرآن هي طريق القلب والعقل إلى معرفة ما يحبه الله	١٤
التدبر وسيلة المعرفة ودلالة المحبة	١٦
اخلاق حامل القرآن ومسئوليته	٢٢
قواعد للانتفاع بالقرآن	٢٤
آداب التلاوة والسماع	٢٥
خطورة هجر القرآن وانواع الهجر	٣٠
درجات الموصولين بالقرآن	٣١
السبب الثاني:	
[التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض...]	٣٥
القائم بالفرائض محب، والقائم بالنوافل بعدها محبوب..	٣٨
المقتصدون والمؤدون للفرائض هم اصحاب اليمين والسابقون المقربون اصحاب النوافل..................	٣٩
نوافل الصلاة وامثلتها	٣٩
نوافل الصيام وامثلتها	٤٣
نوافل الصدقة وامثلتها	٤٧
التنفل في الحج والعمرة	٥٠

الموضـــوع | الصـفحة

السبب الثالث:
[دوام ذكره على كل حال...] ٥٣
فضل الذكر والذاكرين ٥٥
أنواع الذكر ٦٠
الصلاة على النبي ﷺ، وحكمة ضمها إلى الأذكار ٦٣
متى يصبح الإنسان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات؟... ٦٦
السبب الرابع:
[إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى...] ٦٩
منزلة الإيثار وعلامة نيلها ٧١
إيثار محاب الله يتم بثلاثة أمور
أولاً: قهر هوى النفس ٧٢
الطرق العملية لمجاهدة الهوى ٧٥
ثانياً: مخالفة هوى الناس ٧٦
ثالثاً: مدافعة ومجاهدة الشيطان وأوليائه ٧٩
السبب الخامس:
[مطالعة القلب لأسمائه وصفاته...] ٨٥
الصفات التي لا يوصف بالمعرفة إلا من حازها ٨٨
الوظائف الثلاث التي جاءت بها الرسل لإكمال المعرفة .. ٨٩
الطوائف الثلاث الصادة عن تلك الوظائف ٩٠
طريقان لسلك سبل المعرفة بالله تعالى ٩٢

الموضـــوع | الصـفحة

وجوب معرفة محاب الله ومبغوضاته بعد معرفته سبحانه.. ٩٧

السبب السادس:

[مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة...] ٩٩

دلالة العقل الصريح على استحقاق الله وحده للمحبة الحقيقية........................ ١٠١

معاني قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾... ١٠٥

إشارات وأمثلة على آلاء الله وآياته في الإنسان........... ١٠٦

السبب السابع:

[انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى...] ١١٥

المعاني التي تحوم حولها كلمة (انكسار) وكون (الخشوع) أقرب تلك المعاني ١١٧

التفسيرات التي قيلت في معنى الخشوع ١١٨

الخشوع حياة الصلاة، وعدم اقتصاره عليها ١١٩

المعاني التي تتم بها حياة الصلاة.................... ١٢٠

درجات الخشوع الصادق.......................... ١٢٢

خطوات عملية لتحصيل الخشوع.................... ١٢٤

السبب الثامن:

[الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه...] ١٢٧

لماذا كان هذا السبب من أبلغ الأسباب الدالة على المحبة... ١٢٩

وصف ﴿تتجافى جنوبهم..﴾................... ١٢٩

الموضوع	الصفحة

لماذا كان أهل قيام الليل من أشرف أهل المحبة.......... ١٣٠
ميسرات قيام الليل.............. ١٣٢
مراتب قيام الليل ١٣٣
منزلة المستغفرين بالأسحار ١٣٥
أسباب كون الاستغفار بالسحر من الفضائل والمكرمات .. ١٣٦
السبب التاسع:
[مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم...] ١٤١
لماذا وجبت محبة الله للمتحابين فيه ١٤٤
الخصال المطلوبة فيمن يختار للصحبة والمحبة.......... ١٤٤
منافع مجالسة الصادقين المحبين.......... ١٤٦
مجالس العلماء هي خيار مجالس المحبين.......... ١٤٦
توخي المحبين للمصلحة في الصمت أو الكلام.......... ١٤٨
التخويف من كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى.......... ١٥٠
السبب العاشر:
[مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل] ١٥٣
وجوب المحافظة على سلامة القلب.......... ١٥٥
أقوال أهل العلم في معنى القلب السليم ١٥٥
الأسباب التي تبعد القلب عن الله.......... ١٥٦
الأصول الثلاثة التي ترجع إليها الذنوب والمعاصي........ ١٥٦
ركائز العصيان في النفس البشرية ١٥٨

الموضـــوع | الصـفحة

الطرق الأربعة للوقوف على عيوب النفس ١٥٩
وسائل المحافظة على صحة القلب.................... ١٦٠
الآثار التي تعرف بها سلامة القلب.................... ١٦١
الفهرس ١٦٣

* * *